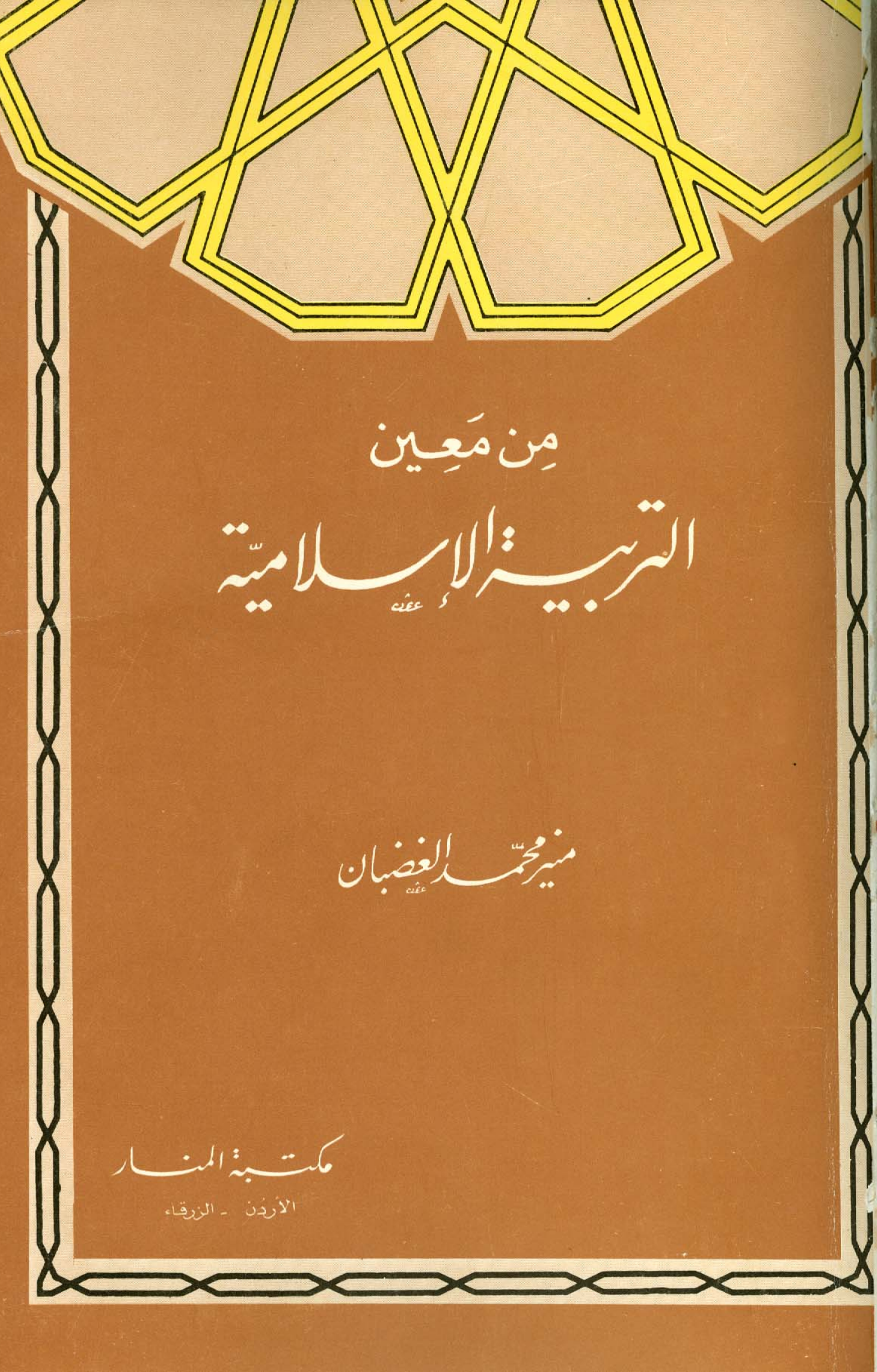

من مَعين
التربية الإسلاميّة
منير محمّد الغضبان
مكتبة المنار
الأردن - الزرقاء

الطبعة الثانية

١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

من معين التربية الإسلامية نستقي هذه المفاهيم .

فالتربية التي تسمى ـ الحديثة ـ اليوم تختلف في فلسفتها اختلافاً تاماً عن التربية الإسلامية ، وإن اشتركت في بعض النتائج معها . وقد تكفل البحث الأول بإيضاح هذا المفهوم .

والقرآن الكريم هو مصدر التربية الأول في الوجود ، وقد نهلنا من معينـــه دروس التربية في أُحـــد ، كما وردت في سورة آل عمران . وهو مدار البحث الثاني .

والرسول ﷺ هو إمام المربين . فأخذنا قبساً واحداً منه وهو حديث في تربية الطفل أنس بن مالك رضي الله عنه ، وحديث آخر في تربية الطفل عمرو بن سلمة .

إنها نقاط من بحر التربية الإسلامية الزاخر الذي يملأ عبابه الوجود . غير أنا أزهد الناس في بضاعتنا العظيمة .



التربية الحديثة على ضوء الإسلام

الفلسفة والمفاهيم

بين يدي البحث :

لا بد من إيضاح فكرة أساسية في موضوع التربية ، تفسر جميع جوانبه وفروعه ، وتلقي الأضواء على نتائجه وتطبيقاته .

هذه الفكرة هي أنه ما من نظرية تربوية أو اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية إلا وانبعثت من عقيدة ، عقيدة تحدد نظرها في الكون والحياة والإنسان ، وتتشعب عنها جميع أنظمة الحياة فيما بعد .

وإذا نظرنا هذه النظرة الأساسية منذ بداية الحديث لانستغرب بعدها أن نعقد هذه المقارنة بين الإسلام والتربية الحديثة ، بصفة أن للإسلام عقيدته الخاصة ، تختلف عن العقيدة التي انبثقت منها التربية الحديثة . فللتربية الحديثة فلسفتها ، وللإسلام عقيدته . والتربية الحديثة نظام في التربية يمثل الفلسفة التي انبثق منها ، وللإسلام نظامه في التربية المنبثق من عقيدته . قد تتشابه جزئيات في النظامين ، فلا يجوز أن يدفعنا هذا التشابه إلى اللهاث وراء كل جديد لنثبت أن الإسلام يحتويه أو أنه يحتوي الإسلام .

وحتى لايبدو في كلامنا غرابة يحسن أن نسوق ما قدمه الأستاذ أبو الحسن الندوي من أقوال لأساطين التربية في القرن العشرين حول هذا المفهوم حيث يقول :

(وهنا ثلاثة شواهد لثلاثة من قادة التربية والتعليم ، وأئمة الفكر في العالم الغربي المعاصر :

يقول سير برسي نن الذي يحتل الصدارة بين خبراء التعليم في بريطانيا في مقال له كتبه لدائرة المعارف البريطانية : « لقد سلك الناس مسالك مختلفة في التعريف بالتربية ولكن الفكرة الأساسية التي تسيطر عليها جميعاً هي أن التربية هي الجهد الذي يقوم به آباء شعب ومربوه لإنشاء الأجيال القادمة على أساس نظرية الحياة التي يؤمنون بها . إن وظيفة المدرسة أن تمنح للقوى الروحية فرصة التأثير في التلميذ ، تلك القوى الروحية التي تتصل بنظرية الحياة ، وتربي التلميذ تربية تمكن من الاحتفاظ بحياة الشعب وتمديدها إلى الأمام » .

وإن جون ديوي الذي كان تأثيره في نظام التعليم الأمريكي أكبر من تأثير أي رجل في هذا العصر ، يقول في كتابه ـ الديمقراطية والتربية ـ :

« إن الأمة إنما تعيش بالتجديد ، وإن عمل التجديد يقوم على تعليم الصغار بطرق متنوعة تكون من الأفراد الأمين ورثة صالحين لوسائلها ونظرية حياتها ، وتصوغهم في قالب عقائدها ومناهج حياتها » .

ويقول البروفسور كلارك :

« مهما قيل في تفسير التربية فمما لامحيص عنه أنها تسعى للاحتفاظ بنظرية سبق الإيمان بها ، وعليها تقوم حياة الأمة ، وجهاد في سبيل تخليدها ، ونقلها إلى الأجيال القادمة » •

كما يسوق لنا من جانب آخر رأي أحد أئمة التربية السوفييت كوفيرين إذ يقول :

« إن العلم الروسي ليس قسماً من أقسام العلم العالمي ، إنه قسم منفصل قائم بذاته مختلف عن سائر الأقسام كل الاختلاف • فإن سمة العلم السوفيتي الأساسي أنه قائم على فلسفة واضحة متميزة ، إن التحقيقات العلمية لا تزال بحاجة إلى أساس علومنا الطبيعية الفلسفة المادية التي قدمها (ماركس) و (انجلز) و (لينين) و (ستالين) • وإننا نريد أن نخوض وفي أيدينا هذه الفلسفة ــ في معترك العلم الطبيعي ــ ونصارع جميع التصورات الأجنبية التي تناهض فلسفتنا المادية بكل حزم وقوة ») •

ويبلغ الحذر في تميز التربية للأمة أن أمريكا ندمت كثيراً يوم أخذت بنظام التربية الانجليزي مع أن الأصل القومي واحد ، والأصل العقائدي كذلك • كما قال الأستاذ الأمريكي الدكتور كونانت في كتابه التربية والحرية :

(إن عملية التربية ليست تعاطٍ وبيع وشراء وليست بضاعة تصدر إلى الخارج أو تستورد إلى الداخل • إننا في فترات من

التاريخ خسرنا أكثر مما ربحنا باستيراد نظرية التعليم الإنجليزية والأوربية إلى بلادنا الأمريكية) •

* * *

فتربية كل أمة إذن منبثقة من عقيدتها ، وعندما تتحدث عن التربية الحديثة فلا بد أن ندرسها على ضوء الإسلام ونخضعها لقيمه ومفاهيمه • فالمسلم يأخذ من معطيات التفكير البشري في العلوم الإنسانية بحذر ، وبالقدر الذي لايتعارض مع أصول عقيدته • كما أنه يأخذ وهو عارف بصير بما يأخذ ، ويدع وهو عارف بصير بما يدع • لا يضيره أن يأخذ الحكمة أنى وجدت فهو أحق الناس بها •

والذين يعملون اليوم في ميادين التربية في مجتمعنا أحد نوعين :

الأول : وهم الذين يحملون عواطف إسلامية صادقة فيقفون أمام معطيات التربية الحديثة مبهورين ، ويحاولون جاهدين أن يقحموا مفاهيم التربية الحديثة في الإسلام ولو عن طريق لَيّ أعناق النصوص • أو أنهم يحملون على التربية الحديثة بحجة أنها لا وجود لها في الإسلام ، ولا حاجة لنا بها لأنها آتية من الغرب ويحاربون دعاتها وأساليبها ووسائلها •

هذا وإن اختلف الموقفان لهذا الفريق ، لكن الموقفين صادران عن عاطفة إسلامية صادقة •

الثاني : وهم الذين تأثروا بكل معطيات الحضارة الغربية فرأوا بها حلاً جذرياً لمشاكلنا ، ومما تأثروا به كذلك التربية الحديثة . ويحقدون بنفس الوقت على الذين يودون تمييز الإسلام عنها بحجة أنهم عقبة كأداء في سبيل التقدم .

وسأحاول إن شاء الله في حديثي الموجز عن التربية الحديثة أن أقدمها على ضوء الإسلام ومبادئه سائلاً الله عز وجل أن يقيني العِثار والزلل إنه سميع مجيب .

وإن كنت أعترف سلفاً أنها مهمة أكبر مني . إنما حسبي أن أشق الطريق .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) .

أولاً ــ الطبيعة الإنسانية وفلسفة التربية :

النظرة إلى الإنسان جزء من العقيدة التي يعتنقها المرء • وقبل أن نصل إلى نظرة التربية الحديثة للإنسان نرى لزاماً علينا أن نستعرض الشوط الذي مرت به هذه النظرة في عالم التربية حتى وصلت إلى ما استقرت عليه اليوم • لأن التربية الحديثة تحمل ردود الفعل على النظرات السابقة • وما لم نعرف ــ بشكل سريع ــ هذه المفاهيم لا نستطيع أن نستوعب الموقف الكامل لهذه التربية من الإنسان •

١ ــ نظر بعض الفلاسفة والمفكرين إلى الطبيعة الإنسانية على أنها شيء يقسم إلى جسم وعقل • فالإنسان له جسم محدود بالمكان • أما العقل فليس له هذه الحدود • بل هو أقرب إلى الروح منه إلى شيء آخر • ومثّل هذه الثنائية الفلسفة الإغريقية ؛ وعلى رأسها سقراط وأفلاطون •

يقول أفلاطون : الإنسان روح في علاقة موقتة مع جسم مادي ، وإن هذه الروح قد وجدت قبل أن يوجد هذا الجسم • وإنها ستبقى بعد فنائه • ووظيفة التربية على هذا الأساس هي تقوية الروح حتى تتغلب على شهوات الجسد وتسترد مكانها وسيطرتها عليه •

وأدى هذا المفهوم إلى التمييز بين الفنون الميكانيكية أو العمل اليدوي من جهة وبين ما يتعلق بالفنون الحرة كتفسير الأدب وعلم المنطق والموسيقي والرياضيات •ومن أجل هذا كان تعليم العمل اليدوي محتقراً أو مختصاً بالطبقات الدنيا من الناس عن طريق التكرار وتقليد الآخرين بينما كان تعليم الفنون الحرة محصوراً بطبقة الفلاسفة والعلماء •

ونتج عن هذين المفهومين تلك الهوة بين العلم والحياة • أو بتعبير أدق بين الإنسان بحاجاته الجسدية المادية وبين البيئة التي يعيش فيها • وعلى طالب العلم أن يلتحق بعالم المثل ويحيا في دنيا الأفكار ليصبح إنساناً مرموقاً في مجتمعه •

٢ ــ وتسلل هذا المفهوم الإغريقي إلى مسيحية الكنيسة وأضافت إلى الإنسان فكرة الخطيئة الموروثة إذ تقول فلسفة المسيحية التقليدية بمبدأ الخطيئة الأصلية • وأن الإنسان فقد قدرته على الوصول إلى الحقائق بارتكاب آدم للزلة الكبرى • وهذه الزلة لم تقتصر عليه وحده ، وإنما تعدته إلى سائر أبنائه من البشر أجمعين ، ولذلك كان عليهم أن يمروا بخبرة معينة حتى يستطيعوا التغلب على هذه الوصمة • ومن أجل أن يدخل الإنسان في ملكوت الله ويصبح جزءاً من ذات الإله لابد من إحراق شهواته وتحطيم متطلبات جسده • ولهذا كان الرهبان يعتزلون الحياة والنساء وملذات الدنيا قربى إلى الله كما يقول

جل شأنه عنهم : (••• ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها ••)

٣ ـ ونادى توماس هوبز في القرن السابع عشر بفهم آخر للطبيعة الإنسانية تقوم على أساس الطبيعة القاسية الشريرة وسماها بحرب الجميع ضد الجميع • فالإنسان ذئب تجاه أخيه الإنسان ، ولايحل مشكلة الحيـاة إلا الضغط والقوة والسلطان • بينما نادى معاصره ـ لوك ـ الانكليزي بأن العقل الانساني عندما يحمله الطفل إلى المدرسة يكون كالصفحة البيضاء ، وتقـوم المدرسة بواجبها من ملء جوانبه بالتراث الإنساني المتراكم ، والخبرات البشرية العديدة • وحرمت هذه النظرية الطفل من كل كيان حيوي له ، وحرمته من دوافعه ومن شخصيته الإنسانية التي تتميز أول ما تتميز بالحركة والحياة •

٤ ـ لكن الفلسفة الفرنسية المتمثلة بجان جاك روسو في القرن الثامن عشر فرقت بين الطبيعة والبشر فأعادت بجرة قلم كل خير للطبيعة ، أو بتعبير أدق لخـالق الأشياء • وكـل شر للناس الذين يكونون أداة الانحراف بالطفل وقد مثل هذا قوله : (كل شيء خير إذا ما جاء عن طريق خالق الكون • وكل شيء يصيبه الفساد والانحلال إذا ما مسته يد البشر) •

وهو إن أعطى التربيـة مفهوم التنمية للمواهب الفطرية لا الافراغ في اللوح الأبيض ، غير أنه جنح في إبعاد طفله عن البشر

لدرجة تجعله أقرب ما يكون من صفاته إلى الحيوان الذكي ، وجعل جل همه في تربية حواسه ، ويمكن أن نطلق على تنائج هذا الفهم للطبيعة الإنسانية في مجال التربية باسم التربية السلبية.

٥ ـ نظرية الغرائز : وقد قسمت الطبيعة الإنسانية إلى مجموعة من الغرائز مثل حب الذات والمقاتلة والغريزة الجنسية . وهي متأثرة بنظرية دارون عن أصل الأنواع ونشوء الإنسان كما يقول عنها ديوي :

إنها قامت على أساس التشابه بين غرائز الإنسان وغرائز الحياة الدنيا ، وأصبح معنى هذا لكي نعرف السلوك الإنساني على حقيقته يجب أن نعرف وندرس السلوك الحيواني ، واتجه العلماء بذلك إلى دراسة هذا السلوك الحيواني لعلهم يستنتجون منه القوانين والنظريات الخاصة بالسلوك الانساني في دراسة موضوعية متركزة على ما يظهر من هذا السلوك .

وكان هدفهم من هذه الطريقة أن يربطوا علم النفس بالعلوم الطبيعية الأخرى بحيث لا تدخل في دراسة العوامل الذاتية التي لا يمكن ضبطها والتحكم بها .

٦ ـ وظهرت في هذا الصدد نظرية السلوكيين الذين رأوا أنه للحصول على نتائج موضوعية تماماً فيما يختص بالطبيعة الإنسانية ووظيفتها ، يجب التركيز على السلوك السافر ، وعلى هذا يتميز المذهب السلوكي بصفة عامة باتجاهين :

الأول : هو تطبيق الأسلوب العلمي بمبناه الميكانيكي على ميدان السلوك والتخلص من التفسيرات الغيبية التي تعني رفض التفسير الديني القائم على الغيب والوحي من الله .

الثاني : استخدام الحيوان في البحوث والتجارب بقصد دراسة وفهم السلوك عند الإنسان .

وهكذا حرم السلوكيون الإنسان من شعوره وعقله ، ونظروا إليه نظرة ميكانيكية آلية تتركز حول المثيرات والاستجابات والأفعال المنعكسة وقوانين الترابط . وكانت نظرة السلوكيين بذلك إلى الطبيعة الإنسانية نظرة جزئية اجتزأت عاملاً واحداً من الكل ، ونظرت إليه على أنه الكل نفسه .

٧ ـ النظرية النفعية : وهي التي تقيس الأمور بنتائجها وما تحدثه من ألم ولذة . فما كان لذيذاً فهو المفيد والنافع ، وما كان مؤلماً فهو الضار والشر .

وقد انتقدها ديوي بعنف حين قال :

(ونظرية النفعيين الخاصة بتطابق الأفعال مع نتائجها هي خرافة نخدع بها أنفسنا ، فهي تنكر في الواقع أن الوقت وثيق الارتباط بالأخلاق حيث يمثل الوقت جوهر الصراع الخلقي) .

٨ ـ الطبيعة الإنسانية في التربية الحديثة :

كان لنظرية داروين عن التطور وأصل الأنواع أثرها أيضاً في النظرة للطبيعة الإنسانية . وكان مبدأ التطور يتضمن أن

الأنواع ليست نهائية جامدة بل إنها بالعكس من ذلك تتطور وتتغير باستمرار • وهكذا يتخلص التغير ويتحرر من سلطان اللامتغير • فالطبيعة الإنسانية إذن متطورة متغيرة تسعى على الدوام إلى تكييف نفسها حسب الظروف الاجتماعية المختلفة ، وأصبحت التربية على هذا الأساس عملية نمو مستمر •

وخلصت هذه المبادىء إلى أن الطبيعة الإنسانية التي يخرج بها الوليد البشري مستقبلاً للحياة مرنة يمكن تشكيلها في أشكال وأنماط مختلفة حسب الأهداف التي نضعها للعملية التربوية • والبيئة الاجتماعية متغيرة متطورة أيضاً مما يميز المجتمعات الإنسانية في العصر الحديث • وتغير البيئة الاجتماعية أساسي حتى تتاح الفرصة للطبيعة الإنسانية أن تنمو إلى أقصى حد لها •

إذن فالصفة الأولى للطبيعة الإنسانية في التربية الحديثة هي التطور والتغير • أما الصفة الثانية فهي التكامل • وكما يقول عنها ديوي :

وهذه الطبيعة الإنسانية لاتنقسم إلى جزئيات صغيرة أو كبيرة باختلاف الأسماء التي تعطى لها • ولكنها كل متكامل في جميع أجزائه ، ومتفاعل يؤثر ويتأثر كل جزء فيه بالأجزاء الأخرى• وهذا التفاعل أساسي في إكساب الطبيعة الإنسانية النمط الذي نشهده بها • فالتفاعل يكون بين طبيعة إنسانية متغيرة وبين بيئة اجتماعية متغيرة متطورة أيضاً •

وهذه النظرة التكاملية للطبيعة الإنسانية وتفاعلها مع البيئة الاجتماعية والمادية قد جمعت بين العناصر الذاتية الداخلية في الفرد وبين العناصر الخارجية الموضوعية في البيئة . وكانت هذه النظرة المجالية أساساً للنظر إلى الطبيعة الإنسانية نفسها على أنها كل متكامل لا يتكون من جسم يضاف إليه عقل . ولكن الطبيعة الإنسانية أبعد من ذلك . فالكل أكثر من مجموع أجزائه ؛ أي أن الطبيعة الإنسانية هي أكثر من مجرد إحساسات جسمية وتكوينات عقلية . وهكذا ننظر إلى الطفل في التربية على أنه كل متكامل تعنى به هذه التربية من النواحي الجسمية والعقلية على حد سواء . فهو يتعلم بجسمه كما يتعلم بعقله لأن أحدهما لا يوجد بدون الآخر .

مقارنـــة

بهذه النظرة الجديدة إلى الطبيعة الإنسانية يمكن القول أن التربية الحديثة خطت خطوات حاسمة وحساسة في فهم الإنسان على أنه كل متكامل وليس تنفاً وتفاريق ، وعملت على تربيته ككل عقلٍ وجسم • ونستطيع أن نلاحظ المدى الكبير للتطور البشري في فهم الانسان على هذا الأساس من خلال المقارنة التي عقدها الدكتور النجيحي في كتابه ــ فلسفة التربية ــ بين التربية القديمة والحديثة إذ يقول :

في ميدان أهداف التربية كانت الأهداف ترمي إلى تدريب العقل الإنساني دون ما نظر إلى المناشط التي تتصل بالناحيـــة الجسمية ، وأصبحت البرامج الدراسية عبارة عـــن المواد التي تعمل على تدريب هذا العقل وشحذه حتى يستطيع أن يسيطر على الشخصية الإنسانية بتمامها ، وأصبح كل ما يمت إلى النواحي الجسمية من مناشط خارج البرامج الدراسية ولا يمت بصلة إليها• واتجهت هذه البرامج بصفة خاصة إلى دراسة الفلسفة والمنطق والرياضيات على أنها الوسائل الفعالة في تدريب هذا العقل •

وأصبح النظام المدرسي مشكلة تواجه المدرسين • فحيث أن العقـــل والجسم نوعان مختلفان فإنهما قد يسلكان مسالك

متعارضة تعوق بعضها الأخرى • وحيث أن الطفل لا يستطيع أن يذهب بعقله فقط ، فلا بد أن يحمل معه جسمه • وحيث أن هذا الجسم له مناشط مختلفة يقوم بها فمن الطبيعي أن يشغل المدرس في كثير من الوقت بقمع هذه المناشط الجسمية أو تحديدها حتى يصل إلى سكون هذا الجسم ، وإلى خضوعه خضوعاً تاماً للعقل حتى يستطيع أن يقوم بوظيفنه خير قيام •

وأخذت العقوبات البدنية تحتل مكانها في الميدان التعليمي إذ أصبح ينظر إلى التلميذ على أنه سلبي يتلقى المعلومات التي يلقيها عليه المدرس بالطريقة الإلقائية في سكون وهدوء • فإذا ما حاول أن يحرك جسمه قسا عليه المدرسون بالعقوبات البدنية المختلفة ، وأصبح التلميـذ النموذجي هو الذي يجلس صامتاً ساكناً حتى يستطيع العقل أن يستوعب المعلومات التي تلقى عليه• ونتج عن هذه النظرية أيضاً أن أصبحت مادة التربية مجموعة من المعلومات والمهارات قد توصل إليهـا أجدادنا في الماضي ، وأصبح عمل المدرسة هو مجرد تحصيل وتوصيل هذه المعلومات إلى أذهان الجيل الجديد • وكان على التلاميذ أن يكونوا مطيعين مؤدبين حتى يستطيعوا استقبال كل ذلـك • وأصبح الكتاب المدرسي ذا مكانة مقدسة إذ هو الذي يحتوي على نتائج عقول الأجداد وعصارة أفكارهم • وازدادت أهمية المدرس لأنه هو الوسط الذي تنتقل فيه هذه الأفكار إلى التلاميذ وهكذا فرضت

على التلاميذ مستويات ومعلومات خارجة عنهم وضعها الكبار وحاولوا فرضها على الصغار الذين لم يصلوا إلى مرحلة النضج بعد . وبذلك تركنا التلميذ بخبراته واستعداداته وجئنا له بخبرة الكبار وطرق الكبار .

هذا بالنسبة للتربية التقليدية القديمة . أما بالنسبة للتربية الحديثة فقال : (وأصبح لهذا المفهوم المتعلق بالطبيعة الإنسانية في التربية الحديثة نتائج على التعليم فالطفل كائن حي يمارس خبرات معينة ، ويتفاعل مع بيئة معينة كجزء لا يتجزأ من تيار الحوادث والمشاعر والأفكار والأشياء.فالطفل يتعلم كلما أصبحت ميوله واتجاهاته أكثر تنظيماً في أن يختار بين المثيرات التي تضغط عليه كل يوم في حياته أن يستجيب لهذه المثيرات التي اختارها وأن يتشربها دون غيرها، ويصبح التعلم بذلك عملية وظيفية تساعد على تجدد الحياة وتنميتها .

وعلى هذا يجب أن يشترك الطفل بكل انفعالاته وعاداته ودوافعه واستجاباته الجسمية في المواقف التعليمية المختلفة . وأصبح المنهج الدراسي لا يتكون من المواد التي تدرب العقل وتنميه فحسب وإنما أصبح يتضمن كل الخبرات التعليمية التي تؤدي إلى نمو النواحي المختلفة المكونة لشخصية الطفل حيث يستشهد الدكتور النجيحي في نهاية التلخيص برأي الفيلسوف التربوي جون ديوي القائل :

(التربية الحديثة قد اهتمت بالتعبير عن الذات وتنمية الفرد بدلاً من القسر الخارجي الذي كان يسم التربية التقليدية • كما استبدلت النشاط الحر بقواعد النظام الخارجي والتعليم عن طريق الخبرة بالتعلم عن طريق الكتب والمدرسين • وبدلاً من الاقتصار على اكتساب المهارات الفردية والنواحي الفنية العملية عن طريق التدريب الآلي صار تعليمها على أنها وسائل لتحقيق أهداف يقبل عليها المتعلم إقبالاً حيوياً مباشراً • واستبدلت بالأهداف والمواد الجامدة التعرف على عالم دائم التطور) •

رأي الإسلام في مفهوم التربية الحديثة :

ونتساءل بعد هذا العرض : ما هو رأي الإسلام في هذا المفهوم للتربية الحديثة عن الإنسان .

إن التربية الحديثة قد وصلت إلى نضج كبير حين نظرت للإنسان ككل ، واعتبرته في جسمه وعقله هدف التربية ويجب أن يتناول النمو جانبيه معاً ، وبنفس المقدار على أساس تفاعلهما لاانفصالهما عن بعض . ولكن بقي بينها وبين الحقيقة الإنسانية شوطاً طويلاً لم تخط إليه هو الاعتراف بالروح في الإنسان . الإنسان ليس جسماً فحسب ، وليس عقلاً فحسب ، وليس روحاً فحسب ، بل هو جسم وعقل وروح ، بل ويمكن اعتبار العقل جزءاً من الروح .

الذي دفع التربية الحديثة أن تنكر الروح ، أو الحاجات الروحية للانسان هو انطلاقها من فلسفة ملحدة في الأصل ثائرة على الدين والإله . بل واعتبرت التربية القديمة في الأصل هي نتاج الفكر الديني . وهي من جانب آخر رفضت أي شيء ثابت ، وانطلقت من التطور والتغير هرباً من الدين والقيم الدينية المفروضة الثابتة .

ها هو ديوي فيلسوف التربيـــة الحديثة يقول عن الفكر والقيم بأنها من اتناج الإنسان نفسه :

(وتصبح الأفكار تناج تعاملنا الاجتماعي • وليس لها قيمة تسمو بها عما يمر بنا من واقع ومن خبرة في هذه الحياة•ولاتختبر صحة هذه الأفكار بالرجوع إلى عالم آخر • وإنما تختبر صحتها بتأثيرها في العقبات التي تعترض سلوك الإنسان والتي تتطلب التفكير والتأمل ••) •

والضمير والأخلاق لاعلاقة لهما بالله إذ يقول :

(وهكذا نرى أن الأخلاق اجتماعية بكل معنى الكلمة تنشأ في البيئة ومن البيئة وبالتفاعل مع هذه البيئة • وكذلك الضمير ينشأ ويتكون ويأخذ مقوماته من هذا التفاعل مع البيئة • والضمير بذلك ليس كما يقول ـ روسو ـ هبة من الله منحها للفرد ولا يستطيع بشر أن يمنحها لبشر) •

وها هو يهاجم مفهوم الدين كما تصوره في مسيحية الكنيسة فقال :

(وقد أكد علماء الأخلاق التقليديون انسجاماً مع الفلسفة التقليدية أن الضمير منعزل عن هذا العالم عن ماديته ، وأنه ينفرد بأصله ومادته • وهو على هذا الأساس ملكة أصيلة للإضاءة ، ولا تعتم إلا إذا انغمست في الخطيئة ، وهي التي تستطيع الوصول إلى الحقائق الأخلاقية) •

وكل مفاهيم الفضيلة والرذيلة هي من صنع الإنسان لا دخل لله بها ، يقول ديوي :

(إذا ما تاقت النفس بعد ذلك إلى ميدان علوي سماوي . فليكن سماء هذا الواقع لاسماء عالم آخر . فالأمانة والعفة ، والخبث والتبرم والشجاعة والتفاهة والاجتهاد وعدم المسؤولية ليست من الممتلكات الذاتية للشخص . لكنها أنواع من التكيف الواقعي بين قدرات الشخص وبين القوى البيئية المحيطة به . جميع الفضائل والرذائل ما هي إلا عادات تدخل في تكوينها القوى البيئية . وما هي أيضاً إلا أنواع من التفاعل بين عناصر يسهم بها التكوين العام للفرد من ناحية ، وبينعناصر أخرى يسهم بها العالم الخارجي من ناحية ثانية . ويمكن دراستها موضوعياً كما تدرس الوظائف الفيزيولوجية ، ويمكن أيضاً أن تتغير فيها العناصر الذاتية والعناصر الاجتماعية) .

وينكر أخيراً العالم الآخر ، ويعتبره خرافة فيقول :

(ونظرية النفعيين الخاصة بتطابق الأفعال مع نتائجها هي خرافة نخدع بها أنفسنا مثلها في ذلك مثل افتراض عالم علوي ثابت تكون فيه المثل العليا الأخلاقية خالدة أبدية . وكلا النظرتين تنكر في الواقع أن الوقت والتغير وثيقا الارتباط بالأخلاق ، حيث يمثل الوقت جوهر الصراع الخلقي) .

وننتهي إذن إلى أن فهم التربية الحديثة للطبيعة الإنسانية

رغم تفوقه على كل المفاهيم التربوية السابقة هو فهم قاصر ، وفيه نقص خطير ، هو تجاهل الروح أو إنكارها بقول أصح .

ويحدثنا الأستاذ الكبير المفكر محمد قطب عن نتائج هـذا الفهم والنقص في التربية الحديثة فيقول :

(وكانت النتيجة أن استمتع الناس بحياتهم الأرضية أعظم متاع ، واستفاد بالتنظيمات من كل نوع ، التنظيمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمادية .. ثم .. انهار المتاع كله نتيجة خواء الروح من الإيمان ، وخواء الحياة من العقيدة ، وانقلب المتاع السهل الحلو إلى تكالب على شهوات الأرض يقض المضجع ويكدر الحياة ، ويجعلها سباقاً دائماً لا ينقطع ولا يترك فرصة للراحة ، راحة الجسد أو النفس أو الضمير ، وتزايد الصراع فما عـاد صراعاً في باطن النفس ، وإنما أصبح صراع نفوس وأفراد وجماعات ودول وجيوش وطائرات وصواريخ ، ودمار يهدد وجه الأرض) .

ولا بد أن نشير إلى أن الفكر الوحيد الذي وضع الإنسان في مكانه الصحيح هو الفكر الإسلامي . والتربية الحديثة بحاجة إلى أن تطور مفاهيمها حتى تصل إلى مستواه فـ (ليست مزية الإسلام أنه يشمل الكيان البشري كله ولا يترك شيئاً من جوانبه المتعددة الطاقات وإنما المزية الحقة أنه يساير الفطرة فيما هو أبعد من الحقيقة .

إن كيان الإنسان من جسم وروح ، أو جسم وعقل وروح إذا اعتبرنا العقل كياناً متميزاً عن هذين . هذا الكيان ليس منفصل الأجزاء .. إنه ليس جسماً واحداً مستقلاً بذاته لا علاقة لـه بالروح أو العقل ، وليس عقلاً منفصلاً مستقلاً بذاته لا يرتبط بجسم أو روح ، وليس روحاً وحدها هائمة بلا رابط من عقل أو جسم . وإنما هو كيان واحد ممتزج مترابط الأجزاء)[1] .. (والتوقيع على أوتار النفس كلها مجتمعة مترابطة يضمن شيئين معاً وفي آن واحد : الأول هو استغلال طاقات الإنسان كلها ، فلا تهدر منه طاقة واحدة يمكن أن ينتفع بها الإنسان في عمارة الأرض والخلافة عن الله . والأمر الثاني أن استغلال هذه الطاقات مجتمعة يحدث توازناً في داخل النفس وواقع الحيـاة سواء . التوازن ، وهو سمة من سمات الإنسان الصالح ، معنى شامل يشمل كل نشاط الإنسان .

توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح ، توازن بين الإيمان الواقع المحسوس والإيمان بالغيب الذي لا تدركه الحواس . توازن بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، توازن في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، توازن في كل شيء في الحياة .

---

(١) منهج التربية الإسلامية ص ٢٠ ـ ٢١

وكذلك جعلناكم أمة وسطا • وسطاً في كل شيء ، متوازنين في كل ما تقومون به من نشاط •

هذا التوازن في الحقيقة هو سمة الكون كله الذي تتوازن فيه كل الأفلاك وكل الطاقات ، لا تختل منها واحدة في الكون على اتساعه • وهو كذلك سمة الإنسان الصالح الذي يفي بشروط الخلافة عن الله في الأرض ، ويسير حسب منهج الله خالق الكون والإنسان)[1] •

وتأتي أخيراً شهادة الغربيين أنفسهم على لسان واحد من أكبر علمائهم حول هذا الفهم حجـة دامغة على قصور فهمهم للإنسان فيقول :

(وواقع الأمر أن جهلنا مطبق • فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بـلا جواب • لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة)[2] •• (فمن الواضح أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان غير كافٍ ، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائية في الغالب)[3] •• (فكل واحدٍ منا مكون من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة)[4] •

---

(١) منهج التربية الإسلامية للأستاذ محمد قطب ص ٢٧ــ٢٨

(٢) و (٣) و (٤) الإنسان ذلك المجهول للدكتور ألكسيس كارليل ص ٥

ثالثاً ـ من مفاهيم التربية الحديثة :

لن نستعرض مفاهيم التربية الحديثة كاملة • إنما سنحاول الإلمام بأهم هذه المفاهيم • نعرضها بشكلها الموضوعي أولاً ثم نقدمها على ضوء الإسلام بعد ذلك وأهم هذه المفاهيم هي :

النمو ، الخبرة ، الاهتمام ، الحرية •

آ ـ النمو :

وحين تتحدث عن النمو نجدنا مساقين بشكل عفوي للحديث عن الهدف في التربية الحديثة • ولو تساءلنا هل للتربية الحديثة هدف ؟ لكان الجواب كما يقول جون ديوي نفسه : (ليس للعملية التربوية هدف خارجي عنها فهي هدف نفسها) • وذلك لأن الفلسفة التي تقوم على أساسها التربية الحديثة لاتؤمن بأن هناك شيئاً محدداً ثابتاً له نهاية جامدة محددة • ولهذا السبب فهي لا تحدد هدفاً معيناً يتجه إليه النمو حتى لا يصبح هذا الهدف نهاية يقف النمو عنده • والنمو السليم هو الذي يؤدي دائماً إلى مزيد من النمو •

ويشرح هذا المعنى ديوي بتفصيل أدق وأوضح فيقول :

إذا قلنا إن التربية نمو فكل شيء يتوقف على طريقة إدراكنا لهذا

النمو • وإذا كنا قد انتهينا آخر الأمر إلى أن الحياة نمو وأن النمو هو الحياة فإن ترجمة ذلك هي :

١ ــ أن عملية التربية ليس لها هدف فوقها فهي هدف نفسها •

٢ ــ أن عملية التربية هي عملية مستمرة من التحويل وإعادة التفكير والتنظيم •

٣ ــ النمو هو الحركة المتزايدة التي تفضي إلى نتيجة مستقبلة •

ونتساءل بدورنا إذا كانت التربية تقف بهدفها عند النمو فقط • فما الفرق بين الوسيلة والهدف ؟

يجيبنا ديوي ــ أبو التربية الحديثة ــ على تساؤلنا قائلاً :

والوسيلة يمكن تمييزها عن الهدف عندما نبحث اتجاه الخطة المقترحة للعمل ، أي عندما نبحث العمل على أنه سلسلة لحلقات من الأفعال • فالهدف هو آخر عملٍ نفكر فيه ، والوسائل هي الأعمال التي تقوم بها سابقة لذلك •

ويوضح هذا في رأي آخر قائلاً :

(إننا إذا نظرنا نظرة كلية عامة إلى الخطة المقترحة للعمل ، كان آخر الأعمال فيها هو الهدف ، وما عداه من أعمال ووسائل • أما إذا اجتزأنا هذه الخطة الكلية وركزنا على هذا الجزء وعملنا على تنفيذه كان هذا هدفاً قريباً قد اتجهت كل وسيلة من الوسائل

على أنها هدف قريب • وبهذا نصل إلى الهدف الأخير من الخطة بطريقة عملية فعالة تضم بين دفتيها الوسائل والأهداف في كل وظيفي فعال) • هذا ولابد من إيضاح مفهوم النمو بين التربيتين القديمة والحديثة • حتى نطلع على طبيعة التطور الجديد فيه •

فالنمو في التربية التقليدية يقوم على تحقيق أهداف يضعها له الكبار ، وتتعلق هذه الأهداف بمرحلة النضج عندما يصبح الطفل كبيراً • أما النمو في نظر جون ديوي فيجب أن يكون مستمراً على الدوام ، أي يجب أن يكون نماءً • والديمقراطية ترفض أن يكون نمو الفرد نحو أهداف قد وضعها له آخرون • بصرف النظر عما يرغبه وما يتفق مع ميوله واتجاهاته • والهدف الديمقراطي المرغوب فيه أن كل فرد يزداد نمواً إلى أن يكون لنفسه اتجاهاً مناسباً ذاتياً •

يقول الدكتور محمد لبيب النجيحي :

مطاوعة الشخصية الإنسانية أساس لتوجيه النمو واستمراره استمراراً يؤدي إلى نماء الشخصية بشكل عام من جميع نواحيها إذا ما فهم على حقيقته كعامل تربوي هام •

ونستمع إلى ــ روسو ــ يقول :

نحن نجهل الطفولة الجهل كله • إنك ترى أكثرنا حكمة يتعلقون بما يهم البالغ معرفته ولا ينظرون فيما ينبغي أن يتعلمه الأطفال • فهم يبحثون لدى الطفل عن الراشد دون أن يفكر ، وإنما هو عليه قبل أن يصبح راشداً •

وحين نعود لنناقش مفهوم التربية الحديثة عن النمو نجدها فعلاً قد أصابت القصد يوم اعتبرت التربية هي النمو •

فإذا أخذنا ــ لسان العرب ــ ورحنا نراجع فيه معنى التربية لغة لطالعنا ما يلي :

ربا الشيء : يربو ربُواً ورباءً : زاد ونما •

وأربيته : نميته • وفي التنزيل : ويربي الصدقات •

الأصمعي : ربوت في بني فلان أربو : نشأت فيهم •

الجوهري : ربيته تربية : أي غذوته •

قال : هذا لكل ما ينمى كالولد والزرع ونحوه •

وها نحن إذن نجد أن المعنى الأصيل للتربية في اللغة هو عملية النمو • وهذا آخر ما استقرت عليه التربية الحديثة •

والنقطة الثانية التي لابد من بحثها هي : ما هو دورنا في النمو ؟ ويحسن أن نذكر أننا لا ننمي أبداً إنما نفسح المجال للنمو السليم ونساعد عليه ، هذه هي الفكرة الأصلية في الإسلام عن النمو •

فنحن حين نقف أمام نبتة الزرع فمهمتنا معها أن نساعدها على النمو لا أن ننميها • فخصائص النمو موجودة بها وفي ذاتها تسير حسب الخط الذي يكمن فيه نماؤها • وكذلك نحن مع الطفل فنحن لا نزرع فيه جديداً لأن خصائص النمو موجودة فيه•

ولكن علينا أن نساعد على النمو الصحيح دون تعسف أو التواء • وتكمن مساعدتنا للنبتة كذلك في تهيئة التربة الصالحة ، وتقديم الحاجة المناسبة من الماء وإزالة المعوقات الطبيعية التي تحول دون الوصول إلى النمو المطلوب • وهذا هو موقفنا مع الطفل أن نهيىء له البيئة الصالحة للنمو ، وعلينا أن نزيل جميع المعوقات التي تحول دون النمو الصالح الكريم • ومن جهة ثالثة حين نتعسف الطريق بالنبتة ونحاول أن نغير من جوهرها ، أو نسرعها أكثر من الطاقة التي تحتملها • فالذي ينتج النبتة الشوهاء أو بالأحرى خسارة النبتة من الأصل •

وكذلك الأمر مع الطفل حين نريد أن نغير من طبيعته ونعتسف الطريق به في تربيته كما نهوى بغض النظر عن طاقاته وميوله التي يحتملها • فالذي ينتج لدينا هو الطفل المشوه ، أو بالأحرى الطفل المتعطل المنهار • فنحن إذن نوجه ولا ننشىء ، نهيىء ولا ننمي •

والحكم في هذا كله قول الله عز وجل :

[أفرأيتم ما تمنون • أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون • نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون • ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون •

أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون • لو

نشـــاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكَّهون • إنا لمغرمون بل نحن محرومون][1] •

ب ـ الخبرة :

ومن العسير في التربية الحديثة فصل الخبرة عن النمو إذ لاتتم الخبرة إلا عن طريق النمو السليم إذ يقول جون ديوي بهذا الصدد :

(وأصبح النمو في السلوك الإنساني هو اكتساب خبرات جديدة ، وتنظيم هذه الخبرات وتشكيلها وإعادة بنائها من جديد ، وظهرت هذه النظرة في الفلسفة الحديثة التي تقول إن التربية عملية اكتساب خبرات ، وأنها خبرة تعتمد على خبرة سابقة ، وتؤدي إلى اكتساب خبرة جديدة • وبذلك أعطي مفهوم الخبرة هذا المعنى المرن المتطور وأعطيت له هذه القيمة الهامة في التربية)•

هذا وإن اشتركت التربيـــة القديمة والحديثة في تكوين الخبرات لدى الطفل ؛ لكن شتان بين المفهومين • وكما يقول أحد أساتذة التربية المعاصرين :

تغير مفهوم المدرسة من أنها المكان الذي يذهب إليه التلاميذ ليحصلوا على مزيد من المعلومات كما يذهب قطار السكة الحديدية إلى المنجم ليحصل على حمولته من الفحم • لتصبح المكان الذي

---

(١) سورة الواقعة الآيات ٥٨ ـ ٦٧

أنشىء خاصة لتسهيل عملية الحصول على التغيير المرغوب فيه في الخبرة ، وبذلك تكون عملية التربية عملية نمو أو نضج بحالها الحاضر على الدوام ، ويكون المعنى الحقيقي للإعداد هو أن يأخذ الفرد الإنساني من خبرته الحاضرة كل ما يستطيع أن يستفيد منه لما يستقبله من خبرات •

والخبرة في المفهوم التربوي الحديث ذات جانبين يحدثنا عنهما الدكتور النجيحي بقوله :

للخبرة جانبان : جانب يتعلق بالفرد أي بقدراته واستعداداته وإمكانياته ، وجانب آخر يتعلق بالبيئة وما فيها من ظروف موضوعية ، والتفاعل بين هذين الجانبين هو الذي يؤدي إلى الخبرة التربوية • أما التربية التقليدية فقد ركزت على المادة الدراسية دون اعتبار للتفاعل بين هذه المادة وحاجات الفرد وقدراته ودون نظر إلى ما ينتج عن هذا التفاعل من اتجاهات نفسية تحدد ما يحبه الإنسان وما يكرهه •

ونجد الفيلسوف التربوي جون ديوي يجسم هذا العيب في التربية التقليدية فيقول : ما قيمة تحصيل قدر مفروض من المعلومات والجغرافية والتاريخ ، أو كسب القدرة على القراءة والكتابة إذا فقد المرء نفسه في أثناء هذه العملية ، أو فقد الرغبة في تطبيق ما تعلمه ، وأهم من ذلك كله فقد القدرة على استخلاص العديد من الخبرات التي تعرض له في المستقبل ؟!

ويركز سبنسر على هذه الفكرة فيقول :

ينبغي أن نشجع عملية التنمية الذاتية إلى أبعد نطاق ممكن . ينبغي أن يتعود الأطفال إلى أن يقوموا بالتنقيب والبحث من تلقاء أنفسهم . وعلى أن يخطوا طريقهم بأيديهم . علينا أن نخبرهم بأقل قدر ممكن وأن نحرضهم على الكشف بأكبر مقدار ممكن .

ومصدر الخبرة في التربيـــة الحديثة هي الذات الإنسانية والمجتمع البشري إذ ترفض أي مصدر آخر ولو كان الدين نفسه. فالميزان هو المجتمع نفسه كما يقول ديوي :

(الطفل منذ نشأته وهو مستجيب لما يشجعه عليـــه أفراد المجتمع ، ويحجم عن القيام بما يثبطه عنه أفراد المجتمع أيضاً . وبذلك تكون عملية الاستحسان والاستهجان هي أساس تكوين الخلق .. فعندما يقوم الطفل بسلوك معين فإن من حوله يستحثونه إذ يمدونه بالتشجيع ويزودونه بالموافقة ، أو أنهم يمنحونه عبوساً وتعنيفاً . ونحن نعرف مقدماً كيفية سلوك الآخرين . والمعرفة مقدماً هي بداية الحكم على العمل ، والمجتمع الخارجي يصبح محكمة داخلية ومركزاً للحكم على الاتهامات وتأكيدها أو العفو عنها) .

ونجد هنا إصراراً جديداً على رفض التفسير الديني للقيم واعتبار المجتمع هو مصدرها جميعاً :

(الأخلاق إذن ترتبط بواقعيات الوجود ، والحقائق التي

تعتمد عليها تنبع من الروابط الفعالة للأفراد الإنسانيين مع بعضهم البعض ، من نتائج مناشطهم التي نسجوها معهم في حياتهم عبر تاريخهم الطويل • وهنا تدخل المثل العليا من بين الحقائق التي تعتمد عليها الأخلاق • ذلك لأنها نبعت نتيجة تفاعل الإنسان مع غيره • وتبدأ الأخلاق من هـذه البداية أي معتمدة على هذه الحقائق • فالتفاعل الإنساني والروابط الإنسانية وحقائق العلاقات الإنسانية المختلفة موجودة وتقوم بعملها في الأجيال) •

إنه كفر صريح بواح • كل المثل والقيم والأخلاق نشأت من المجتمع ومن التفاعل البشري •

وعلى أساس هذه الصورة فمهمة التربية أن تقدم هذه الخبرات الواقعية للطفل • هذه الأخلاق الاجتماعية وكما يقول ديوي :

فالأخلاق والنمو شيء واحد ، والتنمية والنمو هما نفس الحقيقة عندما تمتد في الواقع أو عندما يفحصها التفكير • وفي أعظم معنى لهذه الكلمة ، الأخلاق هي التربية ، إذ أنها تعلمنا معنى ما تستهدفه •

وهنا يرفض الإسلام هذه المفاهيم القاصرة ، مفاهيم الخبرة بهذا الإطار ، ومفاهيم الأخلاق بهذا الإطار ، ويقرر حقائق خالدة من عند الله :

● يقرر أولاً أن الله جل شأنه هو الذي أوجد في الذات الإنسانية فطرة العبودية لله ، حيث يقول جل شأنه :

[وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين • أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرّية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون][1] •

إن الآية تؤكد أولاً أن الذات البشرية ــ كل ذات بشرية ــ شهدت بربوبية الله • وتؤكد ثانياً أن المجتمع حين يلقن الشرك ويكون كلــه مشركاً لا يمكن أن يغير الفطرة البشرية المتجهة إلى الله • وتؤكد ثالثاً رفض مبدأ الاستحسان والاستهجان ميزاناً للأخلاق والقيم ، فلو أن المجتمع كله فسد وانحرف ، لا عذر للمرء أن يحمل فكر مجتمعه •

وهنا افتراق كامل بين الإسلام وبين التربية الحديثة •

الإسلام يدعو إلى ما أنزل الله • والتربية الحديثة تدعو إلى ما أقره المجتمع : [وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليــه آباءنا • أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون][2] •

● والإسلام يقرر كذلك أن الحق الوحيد في الدنيا والقيمة الوحيدة الخالدة في الوجود هو الإسلام نفسه •

كل مولود يولد على الفطرة • فأبواه يهوّدانه أو يمجّسانه أو ينصّرانه •

---

(١) سورة الأعراف الآيات ١٧٢ ــ ١٧٣

(٢) سورة البقرة الآية ١٧٠

فأصل الفطرة الإسلام ، وإذا كان ضمن هذا الإطار فهو تربية وهو نمو • وكل خروج على هذه العقيدة خروج على النمو الصحيح وتعسف في التربية ، وإذا شئنا أن نقرر الحقيقة الثابتة الباقية هنا فيمكن القول :

إن التربية هي النمو على ضوء الفطرة وضوء منهج الله • فإذا كان النمو على منهج الله فهو تربية ، وغير ذلك فهو تعسف والتواء ويمكن أن يسمى كل شيء إلا التربية • ولابد من كلمة موضوعية في هذا الصدد هي أن الخبرة إن كانت في الجانب المادي في الحياة فهذا لا غبار عليه ولا اعتراض ، إنما المرفوض هو اعتبار الخبرة في القيم والمثل من خلال البيئة الاجتماعية •

ج ـ الاهتمام :

وجد في مطلع هذا القرن تياران متعارضان يمثل أحدهما انطلاق التربية من الجهد ويمثل الثاني انطلاقها من الرغبة • وقد مثل التيار الأول وليم هارس الذي يقول : (إن مبدأ الاهتمام يفسد الطفل ، وإن الشخصية دون بذل مجهود تصبح شخصية مائعة ، وأنه يجب على التلاميذ أن يبذلوا جهداً في التعلم • وعلى المدرسين عند الضرورة أن يجبروهم على بذل الجهد حتى ينقذوا أرواحهم) •

واستطاع جون ديوي فيلسوف التربية الحديثة أن يزيل هذا التناقض بتصحيح المفهوم عن الاهتمام الذي ربطه بالجهد

حين قال : (كل سلوك ناشط لا يتعارض فيه الاهتمام مع الجهد أبداً ، وإنما يكمل الواحد منهما الآخر ، وأنه كلما شعر الفرد باهتمام أكبر كان الجهد الذي يبذله أعظم • وأن الاهتمام الذي يبذله الفرد هو في الحقيقة الخطوة الأولى الداخلية لنشاط له غرض ، وإن المجهود الذي يبذله الفرد ما هو إلا المحاولة الخارجية لوضع هذا الاهتمام المرغوب فيه موضع التنفيذ) •

وتحسن الإشارة إلى أن موضوع الاهتمام لا يمكن أن يعتبر من عطاء التربية الحديثة ، فهذا فلوطا رخس ٥٠ ـ ١٣٨ ب•م يقول :

إن النفس ليست وعاءً علينا أن نملأه ، ولكنها موقد يجب أن نلهبه •

وذاك كوتنيليان ٣٥ ـ ٩٥ ب•م يقول :

(أما أنا فأريد أن أعطي طفلاً يؤثر فيه الثناء ، ويلهبه المجد ، وينتزع الإخفاق دموعه) • ويحدثنا الدكتور النجيحي عن دور الاهتمام في تكوين التفكير الجيد فيقول : الإخلاص هو إلقاء كلية الإنسان في ميدان الشيء الذي تتعلمه • إذ لا شيء أخطر على التفكير الفعال من الاهتمام الموزع المشتت وهذا ما نلحظه في التربية التقليدية•فالتلميذ يعطي اهتماماً خارجياً للمدرسة والكتاب والدرس بينما تكون أفكاره في أعماقه متجهة إلى مسائل أكثر جاذبية بالنسبة له • فهو ينصت بعين أو بأذن ولكن عقله يكون

مشغولاً بأمور تكون لها جاذبية مباشرة له • فهو موزع بين أن ينصت لشيء لا يثير اهتمامه ، وبين أن يتجه بفكره وقلبه لما يحب• والمدرس الذي يثير في نفوس تلاميذه هذا الحماس الحقيقي يكون قد فعل أكثر مما تستطيع أية طريقة شكلية أن تحققه •

دور الاهتمام في الإسلام :

يكفي أن تتحدث عنه من خلال حديث واحد فقط هو قوله ﷺ : « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير • وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا • وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولا تنبت كلأً • فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعمل وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » • فيعطينا الحديث صورة عن الإنسان الذي تفاعل مع العلم وتجاوبت فطرته بنقائها معه ، وكانت اهتماماته ملتحمة مع ما يتلقاه • فسوف يكون الخير الكثير ، والنفع العظيم الذي لايحد مداه • وتعطينا الصورة الثانية من الحديث عن جانب الاهتمام لكنها لم تصل إلى درجة التفاعل بين الإنسان والعلم • فيمكن أن تعطي بعض الفائدة • وهي تعطينا في الوقت نفسه جانباً لا تقره التربية الحديثة ويقره الإسلام هو موضوع الثقافة وتلقي المعلومات فتنفع الناس•لقد هاجمت التربية الحديثة بعنف موضوع

المعلومات العامة ، واعتبرت التربية للخبرة فقط • ولكن الحقيقة في هذا الموضوع هي أن الخبرة جانب من جوانب التربية والمعلومات العامة كذلك جانب آخر منه •

أما الذي لا يقره الإسلام فهو أن ينعدم التفاعل بين الإنسان والعلم ، أو بين الطفل والمادة فالنتيجة عندئذ هي الخراب والموت (إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً) • وخير تعبير عن الاهتمام في هذا المجال هو التعبير النبوي الخالد : « لن يشبع مؤمن من خير يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة » والحديث الآخر « منهومان لا يشبعان : طالب علم ، وطالب مال » •

د ـ الحرية :

يقول الدكتور النجيحي في كتابه عن فلسفة التربية حول هذا الموضوع : الحرية الخارجية هذه أساسية في عملية التربية إذ أنها تتنافى مع الطاعة والهدوء اللذين كانا يميزان الفلسفة القديمة • وأصبحت الفلسفة الحديثة تنادي بهذه الحرية الخارجية ، حرية الجسم والنشاط حتى يستطيع المدرس أن يعرف تلاميذه وأن يكشف عن اتجاهاتهم • والحرية الخارجية أيضاً تناقض السلبية والاستقبال في الطريقة التربوية القديمة • لم يعد بقاء الجسم ساكناً هدفاً لعملية التعليم بل إن الحركة والنشاط المنظم أساسيان في اشتراك التلاميذ في عملية التعلم ، وحرية الحركة لها أهميتها إذ هي وسيلة من وسائل المحافظة على الصحة البدنية والعقلية السوية • وهذه

الحرية الخارجية على مالها من أهمية لا يمكن أن تعتبر غاية في ذاتها إذ أنها تصبح حينئذ معولاً من معاول الهدم للنشاط الإنساني كله . أما حرية التفكير والذكاء فهي التي تحدد هذه الانطلاقة العمياء لتوحد بين الدوافع الفطرية المختلفة ، وتجعل منها كلاً منسقاً وخطة واحدة للنشاط أكثر وضوحاً وتماسكاً . والتوحيد بين عمليتي التحرر والحرية الفكرية هو جوهر التفكير كما يقول جون ديوي إذ يتابع إيضاحه لهذا التوحيد قائلاً :

أي أنه يؤدي إلى ما يسمى بالقدرة على ضبط النفس . وهنا يتضح مفهوم الضابط الاجتماعي في التربية ويتكون هذا الضابط الاجتماعي عن طريق الربط بين الحركة الخارجية وحرية الفرد في القيام بها . وحرية الأفكار التي تضع الأهداف لهذه الحركة الخارجية وتوجهها .

وأما علاقة الحرية بالنظام فهي علاقة متكاملة . إذ التنظيم ليس عقبة في سبيل الحرية وإنما هو مكمل لها محدد لحدودها . فلا توجد حرية فعالة بدون تنظيم . والحرية بدون تنظيم تؤدي إلى فوضى . والتنظيم دون حرية لابد وأن يؤدي إلى الاستبداد. وتنمية مفهوم الحرية والعمل على ممارستها عمل من أعمال التربية. فالتربية تقوم على احترام الشخصية الإنسانية . ومعاملة الطفل على أنه غاية في ذاته . وهذا يعني أن توجه تربيته لكي يستطيع أن يكوّن عقلاً مفكراً ذكياً يستطيع أن يستغله في ممارسة حريته ممارسة فعالة .

هذه الحرية الموجهة هي التي سماها ديوي خطوات التفكير من خلال طريقته ، إثارة المشكلة .

أولاً : التلميذ يمر بموقف خبري حقيقي يكون فيه نشاط مستمر يهتم به التلميذ لذاته .

ثانياً : أن تنمو من هذا الموقف مشكلة حقيقية تثير تفكير التلميذ .

ثالثاً : أن تكون لدى التلميذ المعلومات اللازمة وأن يقوم بالملاحظة التي يتطلبها الموقف .

رابعاً : أن يقوم التلميذ بوضع الحلول المقترحة والتي يكون مسؤولاً عن تنميتها .

خامساً : تتاح للتلميذ الفرصة لاختبار أفكاره عن طريق التطبيق لكي تتضح معانيها وحتى يكتشف بنفسه صحتها .

وهكذا تكون تنمية التفكير هدفاً ووسيلة في التربية كان له دعاته من المربين الغربيين منذ أمد طويل . فإيرا سموس في القرن الرابع عشر يقول : ثمة أطفال يفضلون أن يقتلوا على أن يعاقبوا ضرباً ، وباللين وبالانذار الرقيق نستطيع أن نخلق منهم ما نريد . بل ويحدثنا عن الحرية عند القدماء فيقول : كان القدماء يقتنون الأحرف من حلوى محببة إلى الأطفال . وبهذا كانوا يجعلونهم يلتهمون الأبجدية التهاماً . وغاراتتوا تلميذ الفيلسوف رابليه أراد له أستاذه أن يتعلم عن شوق ورغبة وأن يتثقف وهو يلعب وأن

يدرس الرياضيات عن طريق اللهو والتسلية • فتعلم غاراتتوا ألوف المبتكرات المتعلقة بالعدد عن طريق الورق • وكان جان جاك روسو في القرن الثامن عشر من أعنف المهاجمين للشدة والعقوبة في مرحلة الطفولة يقول : إن الإنسان يولد ويحيا ويموت وهو في العبودية• فعند ولادته نخيطه في قماط ، وعند موته نزره في نعش ، وما دام محتفظاً بهيئة الإنسان نكبله بظواهرنا الاجتماعية•ويقول كذلك : ليست أهم قاعدة في التربية أن نربح الوقت بل أن نضيعه • اجعل المسائل في متناوله ودع حلها له • ولا تجعله يعلم شيئاً عن طريقك، ليركض وليتخبط وليرتم مائة مرة في اليوم فلا عليك أن يتعلم مبكراً كيف ينهض من كبوته • وإن هناءة الحرية لتفدي عنه الكثير من الجراح •

أحبوا الطفولة ويسروا لها ألعابها ومسراتها وفطرتها المحبوبة • من فيكم لم يأسف أحياناً على تلك الفترة التي لا تفارق فيها الابتسامة الشفتين • فلم تريدون أن تحرموا هؤلاء الصغار الأبرياء من لذة تكاد من قصرها تفوتهم ، متعوهم بلذة الوجود منذ أن يصبحوا قادرين على الاستمتاع بها •

ويصف موتنيني في القرن السادس عشر بؤس التلاميذ فيقول :

إننا بدل أن نحبب الآداب للأطفال لا نزودهم في الواقع إلا الذعر والقسوة • إنه لسجن حقيقي لشبيبة أسيرة • إنك إذا دخلت

عليهم لم تسمع إلا صراخ أطفال يعذبهم معلمون قد ملكتهم نشوة الغضب .

ويأتي فنيلون في القرن السابع عشر فيحلق بجناحي طائر ويقول :

على التلميذ أن يتعلم كل شيء وهو يلهو ويلعب . وإذا كانت له مساوئه فعلينا أن لا ننبهه لها إلا بكثير من الحذر حتى لا نحزنه .

ولا غرابة في ذلك فلقد كانت المدارس الأوربية والأمريكية حتى القرن الثامن عشر ثكنات اضطهاد للأطفال البريئين . فقد كان الفكر السائد آنذاك يقول أن الأطفال الصغار سواعد الشيطان وأن الطفل ليس ضرورة علمية فقط بل ضرورة دينية فالطفل يضرب ويضرب لإخراج الشيطان منه . وقد عددت بعض الكتب أنواع عقوبات الأطفال في المدارس الابتدائية ، وذكرت منها : الضرب بالعصا ولبس الطرطور للكسالى ، الركوع ، القعود في سلة مدلاة من السقف ، تركيب الولد على هيئة حمار ، تعرية الجسم والانبطاح على الأرض والضرب المبرح !! ويكفي أن نسوق إحصائية لمعلم في مدرسة ألمانية في القرن الثامن عشر عن العقوبات التي أوقعها بتلاميذه تقول الإحصائية : قائمة حساب دفتر أحد المربين ٩١١٥٢٧ ضربة بالعصا ٢٠٩٨٩ بالمسطرة ، الصفعات : ١٣٦٧١٦ صفعة ، لكمات على الفم ١٠٢٣٥ لكمة ، اللكمات على الأذنين ٧٩٠٥ لكمة .

لا غرابة إذن ودعاة التربية الحديثة يرون هـذا التعذيب الوحشي ، وهذه القسوة الرهيبة أن يندفعوا بردود الفعل ضد الدين الذي يقول بضرب الطفل لإخراج الشيطان منه فيكفروا به، وضد العقوبة فيكفروا بها ، وينادون بالحرية المطلقة ، وبحظر العقوبة مهما كانت الأحوال •

وقد ربط ديوي ربطاً محكماً بين هذين الجانبين ، جانب الدين والعقوبة ، واعتبر العقوبة في التربية التقليدية جزءاً من الدين ، وبنى فلسفته في هذا الموضوع على الفكرة المسيحية عن الانسان التي تفصل الروح عن الجسد والتي تقول بكبت شهوات الجسد وقمعها لتربية الروح للدخول في ملكوت الله والسعادة في اليوم الآخر ، وبنى الفلسفة الحديثة للتربية على رفض الدين أصلاً باعتباره يقدم القيم الثابتة ولاثبات في حياة الإنسان •

ورفض الايمان باليوم الآخر باعتباره خرافة نعلل بها أنفسنا ونبرر أخطاءنا وبالتالي فلا حاجة لكبت شهوات الجسد وقمعها طالما أنه ليس هناك يوم آخر ولن تستقيم التربية الحديثة ولن تستقر ، ولن يستقر مفهوم الحرية وإلغاء العقوبة فيها حتى نلغي الإيمان باليوم الآخر • فالسعادة تحققها في الواقع لا في عالم المثل • فليحقق الطفل منتهى سعادته الآن ، لأن الطفل هو الغاية ، وليس ثمة شيء آخر نحققه به •

ولا بد بعد هذا الإيضاح بصدد مفهوم الحرية أن نستعرض النقاط التالية :

١ ــ إذا كان للفلاسفة الغربيين عذرهم في هذا الانتقال من النقيض إلى النقيض لأنهم بعيدون عن منهج الله ، فما هو عذرنا نحن أن تتبنى آراءهم كاملة بهذا الصدد ، فنلغي العقوبة ونحظرها في مدارسنا وبين يدينا منهج الله المبرأ من الهوى البشري والنقص البشري ، والجهل البشري .

٢ ــ والإسلام دائماً يمثل التوازن الكامل في الحياة البشرية بين الجانب النفسي والجانب التشريعي لا يلغي العقوبة من الأصل، وإن كانت الأحكام تنطلق من الوازع الداخلي قبل كل شيء ، فهو يقر العقوبة للطفل منذ سن العاشرة إن تلكأ في فرض الله عليه .

٣ ــ هذا ولسنا بصدد عرض مفاهيم التربيــة الإسلامية الآن إلا بالقدر الضروري الضيق الذي تقتضيه طبيعة البحث ، إنما يكفينا بهذا الصدد عرض كامل لأصول تربيــة الطفل في الإسلام من خلال هذا الحديث .

(ستفتح لكم الأرض ويأتيكم قوم ــ أو قال غلمان ــ حديثة أسنانهم يطلبون العلم ويتفقهون في الدين ويتعلمون منكم، فإذا جاؤوكم فعلموهم وألطفوهم ، ووسعوا لهم في المجلس ، وأفهموهم الحديث) .

فليس بالضرب يتم التعلم ، وليس باللعب يتم التعلم ، ولكن بالملاطفة والتقدير والحب ، وإن كانت هــذه الوسطية لا تنفي الجانبين في الوقت نفسه ، والضرورة تقدر بقدرها .

٤ ــ والغريب في الأمر أننا نحاسب المعلمين والمعلمات في التربية على خطوات هربارت المعهودة ونطالبهم بالنسبة للطلاب والطالبات أن يشيعوا روح التربية الحديثة فيمنعون من إيقاع العقوبة على طالباتهم ، ولنناقش الأمر بموضوعية تامة .

صاحب الخطوات ــ هربارت ــ رأيه في العقوبة ما يلي :

(على المعلمين أن يلتمسوا الفطنة والحكمة فيما يطلبون ولا سيما عندما تكون البصيرة الحقيقية غير مكونة بعد ، غير أن عليهم إلى جانب ذلك أن يفرضوا العقاب في عزم وتصميم عندما يستحق التلميذ ذلك ، ولابد للصبيــة والفتيات أن يواجهــوا مسؤولياتهم إذا أردنا حقاً أن يصبحوا رجالاً ونساء . وبقول موجز : إن القيادة الصالحة تتطلب الاستخدام المعقول للسلطة) .

إن رأي هربارت في العقوبة منبثق من رأيه نفسه في خطوات درسه لأن كلا الرأيين منبثق من فلسفته في علم النفس والتربية والقيادة .

وقد يرى البعض أن علينا أن نطور مفهوم الدرس وخطواته لتقترب أكثر وأكثر من التربية الحديثة ، ونأخذ بخطوات ديوي المعهودة في التعليم عن طريق إثارة المشكلة ، وعندئذ يكون التطور إلى الأحسن ، ويكون إلغاء العقوبة في وضعها المناسب . نسوق لهؤلاء خلاصة التجربة الأمريكية في التربية الحديثة وفي مفهوم الحرية بعد حصيلة أكثر من نصف قرن على الأقل على لسان الكاتبة

الأمريكية (هللين ستاتسيري) وهي تقارن بين المجتمعين الإسلامي والغربي فتقول :

(إن المجتمع العربي كامل وسليم ، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التي تقيد الفتاة والشاب في حدود المعقول ، وإن هذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوربي والأمريكي . فعندكم تقاليد موروثة ــ هكذا تفهم الدين ــ تحتم تقييد المرأة ، وتحث على احترام الأب والأم . بل وتحتم أكثر من ذلك عدم الإباحية الغربية التي تهدد المجتمع والأسرة في أوربا وأمريكا ، ولذلك فإن القيود التي يفرضها المجتمع العربي على الفتاة الصغيرة وأقصد ما تحت سن العشرين هذه القيود صالحة ونافعة ، لذا أنصح بأن تتمسكوا في تقاليدكم وأخلاقكم،وامنعوا الاختلاط ،وقيدوا حرية الفتاة بل ارجعوا إلى عصر الحجاب ، فهذا خير لكم من إباحية وانطلاق ومجون أوربا وأمريكا .

وأضافت قائلة :

امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين ، فقد عانينا منه الكثير في أمريكا ، لقد أصبح المجتمع الأمريكي معقداً مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة ، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين يملؤون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السرية، إن الحرية التي أعطيناها لفتياتنا أو أبنائنا الصغار ، قد جعلت منهم جيمس دين وعصابات للمخدرات والرقيق.إن الاختلاط والإباحية

والحريــة في المجتمع الأمريكي ، هدد الأسرة ، وزلزل القيــم والأخلاق ، فالفتاة الصغيرة تحت سن العشرين في المجتمع الحديث تخالط الشبان وترقص التشاتشا ، وتشرب الخمر والسجائر ، بل وتتعاطى ذلك باسم المدنية والحرية والإباحية •

والعجيب في أوربا وأمريكا أن الفتاة الصغيرة تحت سن العشرين،تلعب وتلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها• بل تتحدى والدها ومدرسها والمشرفين عليها • تتحداهم باسم الحرية والاختلاط ، وتتحداهم باسم الإباحية والانطلاق ، تتزوج في دقائق ، وتطلق بعد ساعات ، ولا يكلفها هذا أكثر من إمضاء وبضع نقود وعريس ليل أو عدة ليال ، وبعدها يتم الطلاق ، وربما الزواج فالطلاق مرة أخرى) •

فهل ننتظر يا ترى نصف قرن أو يزيد ، ونبدأ بخوض تجربة التربية الحديثة في الحرية التي لا تحد لنقتنع بخطئها بعد هذه الجولة الطويلة •

إن في ذلك لعبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد •

لنفكر ألف مرة • ونحن تتلقى مفاهيم غربية قبل أن تتبنى منها أي شيء ، وخاصة في أمور تربية الإنسان ، لأن رصيدنا فيه أعظم رصيد في تاريخ البشرية الطويل ، ومتى نفقه ما لدينا من رصيد ، قبل أن نشحذ على الأبواب سائلين (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ••) ؟ !

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين •

نموذج من التربية القرآنية

دروس من أحد



احد جبل يحبنا ونحبه :

هكذا خلد رسول الله ﷺ هذا الجبل الأشم ، أو قل هذا الصديق الأنيس ، ومن أجل هذا تتعاطف معه اليوم ويتعاطف معنا ، كما نحس بالحنين نحوه ، يوم تزلزل وكان عليه الرسول القائد وأبو بكر وعمر وعثمان . فناداه الحبيب :

اثبت أحد . فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيدان .

بجانب الشهداء السبعين هناك وعلى رأسهم سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، هؤلاء الشهداء الذين كانوا ثمرة مرة للمخالفة ، ورمزاً رفيعاً للصمود على مدى التاريخ .

وسنسير في البحث لنعرض أولاً سير المعركة ، وننتقل ثانياً إلى الدروس والعبر منها من خلال البيان الذي أنزله الله في كتابه الخالد ، وأخيراً لقطات من أحد .

قبيل المعركة :

١ ـ اهداف العدو :

مشى عبد الله بن ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان ابن أمية ، في رجالٍ من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فقالوا :

يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم ، فأعينونا بهذا المال على حربه ، فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منا ، ففعلوا . فالهدف الأول إذن هو الثأر .

٢ ـ الغدر من سيماء الكفر :

قال صفوان بن أمية لأبي عزة الجمحي الشاعر :

يا أبا عزة إنك امرؤ شاعر ، فأعنّا بلسانك .

أبو عزة : إن محمداً قد منّ علي فلا أريد أن أظاهر عليه (وكان رسول الله قد أسره يوم بدر ومنّ عليه بالفداء ، على أن يكف لسانه عن المسلمين) .

صفوان : فأعنا فلك الله عليّ إن رجعت أن أغنيك ، وإن أصبت أن أجعل بناتي مع بناتك يصيبهنّ ما أصابهن من عسر ويسر .

وهو نفس العرض الذي عرضه صفوان على عمير بن وهب الجمحي بعد بدر كي يمضي إلى المدينة ليغتال محمداً صلوات الله عليه .

الغدر والغيلة هي السمة الأساسية لجبناء المشركين ولئامهم .

٣ ـ التعبئة المعنوية :

مضى أبو عزة الشاعر مع شاعر آخر يحرضان القبائل المجاورة للخروج للثأر من محمد . الشاعر الغادر أبو عزة يذكر كنانة بحلفها مع قريش ويطالبها بالوفاء بالعهد :

إيهـا بني عبد منـاة الرِّزّام أنتم حمـاة وأبوكم حـامْ
لاتعدوني نَصْرَكم بعدَ العام لا تُسلموني لا يَحِلُّ إسلامْ

أما مسافع بن عبد مناف فيركز على الحسب والدين فيقول :

يا مال ، مـال الحسب المقدم أنشد ذا القربى،وذا التذمم
من كان ذا رُحْمٍ ومن لم يَرْحَم الحلفَ وسط البـلد المحرم
عند حطيم الكعبة المعظم

وقد نجح هذان الشاعران في مهمتهما حيث أقنعا كثيراً من أفراد قبائل كنانة المجاورة لقريش بالتطوع في جيش مكة لغزو المسلمين .

٤ ـ المخابرات النبوية :

كانت تفاصيل الحملة كاملـة لدى الرسول ﷺ من قلم مخابراته السري ، عمه العباس بن عبد المطلب وهذا نص رسالة العباس :

(إن قريشاً قد اجتمعت للمسير ، فما كنت صانعاً إذا حلوا بك فاصنعه ، وقد وجهوا وهم ثلاثة آلاف ، وقادوا مئتي فارس ، وفيهم سبعمائة دارع ،وثلاثة آلاف بعير،وقد أوعبوا من السلاح).

فهل نعي أهمية المخابرات اليوم التي تكشف مخططات العدو كاملة ؟!!!

٥ ــ السرّية :

ونغادر الآن معسكر الشرك ، ونمضي مع الرسالة إلى المدينة.

في سرية كاملة حيث يعلم الرسول ﷺ ما في الرسالة بعد أن قرأها له أبيّ بن كعب ، ، وأمره بكتمانها مع مضمونها .

في اليوم الثاني مضى رسول الله ﷺ إلى أحد قادة الأنصار، سعد بن الربيع ، ونقل له نبأ الرسالة ، فقال سعد :

إني لأرجو أن يكون خيراً .

حدثت مفاجأة غير متوقعة ، عندما دخل ابن الربيع على زوجته فقالت له : قد سمعت ما قال لك .

فاسترجع سعد ، وأخذ بيد زوجته يجرها إلى رسول الله ﷺ وقال : يارسول الله ، إني خفت أن يفشو الخبر ، فترى أني أنا المفشي له . وقد استكتمتني إياه . فقال رسول الله ﷺ : خلّ عنها . وبذلك أكد لنا أن زوجته عرضة للمحاكمة والعقوبة لو قرر لها رسول الله ذلك ، لاطلاعها على سرٍ خاصٍ لزوجها دون علمه ، وتؤكد الحادثة أن قوام النجاح في المعارك هو السرية الكاملة لا الجعجعة الفارغة .

٦ ــ الإعلام المناسب :

استيقظ المسلمون في المدينة على رؤيا رسول الله يقصها عليهم في المسجد : إني قد رأيت والله خيرا . رأيت بقراً لي تذبح ، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً ، ورأيت أني أدخلت يدي في درع

حصينة فأولتها المدينة ، أما البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون ، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل •

إنه ﷺ أعطى القــدر المناسب من المعلومات وهيأ الجو النفسي للمعركة •

٧ ـ الشورى :

الرسول الملهم • الرسول المؤيد بالوحي لا يكتفي برأيه رغم أنه غني عن رأي غيره ، وبالرغم من وجود رؤيا الدرع الحصينة التي أولها بالمدينة، بالرغم من ذلك كله، عرض الموضوع للمداولة• لأن الرؤيا لم تكن ملزمة،ولا نص في الموضوع،وهو يعرض رأيه :

إن رأيتم أن تقيموا في المدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ؟

انحاز لهذا الرأي كبار أصحاب رسول الله كأبي بكر وعمر • كما تبناه زعيم المنافقين عبد الله بن أبي •

٨ ـ الوعي العظيم :

رؤيا الأنبياء حق ، وما رأى رسول الله رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح • ومع ذلك لم يجد شباب الإسلام حرجاً أن يعرض رأياً آخر غير الذي يراه الرسول القائد عليه الصلاة والسلام •

إننا حين نضع في أذهاننا أن العربي كان يسافر شهرين من مكة إلى الشام ليأخذ فتوى كاهنة ، أو رأي عرّاف ، ويحيا في

عالم من الخرافة والأسطورة ، هذا الشباب العربي تحول بالإسلام إلى بؤرة من النور والوعي والتحرر ، ولا يجد حرجاً أن يناقش رسول رب العالمين في رأي ارتآه •

أصوات من المسلمين تنادي :

يارسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لايرون أنا جَبُنا عنهم وضعفنا •

وأصوات أخرى تردد :

يارسول الله كنا نتمنى هذا اليوم ، وندعوا الله ، فقد ساقه الله إلينا ، وقرب المسير •

وارتفع صوت حمزة يدوي : والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة •

وصوت صحابي آخر يهدر :

يارسول الله لاتحرمني الجنة ، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها ، قال عليه الصلاة والسلام : بم ؟

فأجاب : بأني أحب الله ورسوله ، ولا أفر عند الزحف •

رسول الله : صدقت •

توفزت الأعصاب ، وتهيجت المشاعر ، وسيطر جو مشحون بالحماس والتوتر يريد الخروج خارج المدينة ، وأعلنت القيادة النبوية تنازلها عن رأيها استجابة لرأي الشباب المسلم • فأي ثقة وأي اعتزاز نلتموه يا شباب الإسلام أن يتنازل سيد الخلق عن رأيه لرأيكم ؟

٩ ـ الفوضى :

هدأت العواطف الثائرة ، وراح الشباب المتحمس يراجع رصيده فيما اقترح ، ورأى أنه ربما أكره رسول الله على الخروج• فلم لا يعلن تنازله عن رأيه لرأي رسول الله صلوات الله عليه ؟ ورسول الله مؤيد بالوحي •

خرج عليهم الرسول القائد وقد ظاهر بين درعين[1] ، ولبس عدة الحرب كاملة ، وتراجع الشباب عن فورة حماسهم وقالوا :

ما كان لنا أن نخالفك ولا نستكرهك على الخروج • فاصنع كما شئت ، امكث كما أمرتنا •

قال عليه الصلاة والسلام : ما ينبغي لنبي إذ لبس لأمته (أي كامل سلاحه) أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه • وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج • فعليكم بتقوى الله ، والصبر عند البأس ، وانظروا ما آمركم به فافعلوا •

وبذلك وضع عليه الصلاة والسلام حداً فاصلاً بين الشورى من جهة ، وبين التردد والفوضى من جهة ثانية •

انتهى وقت الشورى ، وابتدأ موعد التنفيذ ، فلا مجال للرجوع عن الرأي ، أخلى رسول الله ﷺ الجو أمام طاقات الشباب الملتهبة • لتأخذ دورها وفعاليتها •

---

(١) ظاهر بين درعين : لبس درعاً فوق درع .

وإن كان هذا الرأي قد نهش قلب زعيم النفاق من الحقد أن رُفض رأيه فانتظر الفرصة المناسبة للانقضاض على الجيش المسلم •

١٠ ـ التجمع الوطني :

عندما فصل ﷺ بجيشه من المدينة ، وجاوز ثنية الوداع ، رأى كتيبة حسنة التسليح لها رجل منفردة عن سواد الجيش • فقال : ما هذا ؟؟ فأبلغوه أن الكتيبة من اليهود حلفاء عبد الله ابن أبي • وقد ثارت حماستهم الوطنية حين سمعوا بهجوم خارجي، وهم يرغبون بقتال المشركين مع المسلمين ليكونوا الصف الداخلي المتراص الموحد •

قال عليه الصلاة والسلام : أأسلموا ؟•قالوا : لا يارسول الله•

وفي أيامنا الحاضرة حين تتحدث بالعقيدة في ظروف الحرب يسمى هذا الكلام تفرقة طائفية ، وتمزيقاً للصف الداخلي ، وتحقيقاً لمصالح العدو الخارجي • ترى كان على رسول الله ﷺ ألا يتعرض للعقيدة حفاظاً على التجمع الوطني ؟

هذا منطق الوطنية ، منطق القومية التي تريد أن تجمع الناس كل الناس بغض النظر عن عقائدهم ودينهم تحت لواءٍ واحد • هو لواء الدفاع عن الوطن ، والأمة • والكافر والمسلم سواء في ظل هذه الراية • بل حتى قد تكون القيادة بيد الكافر وتكون الطاعة له •

١١ ـ منطق العقيدة :

قال عليـه الصلاة والسلام عن الكتيبة اليهودية المدججة بالسلاح ؛ التي حركتها عواطف الوطنية لصد العدوان ، وحركها حب التراب والأرض للحفاظ عليه .

قال عليه الصلاة والسلام : أأسلموا ؟ .فقالوا : لا يارسول الله.

فقال : مروهم فليرجعوا فإنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك ، وبذلك أكد عليه الصلاة والسلام أن الجيش الإسلامي يجب أن يكون بقادته وجنوده من المؤمنين بالاسلام ، المعتنقين لعقيدته ، المنفذين لشرعته .

١٢ ـ الخيانة :

أرغى عبد الله بن أبي وأزبد ، فلقد سُفِّه رأيه مرتين : مرة يوم خرج المسلمون من المدينة للقاء العدو خارجها ، ومرة يوم رد رسول الله حلفاءه من اليهود ، ورفضهم في الجيش الإسلامي .

وفي أصعب الظروف ، وفي أخطر الحالات ، وفي اللحظات العصيبة انفصل عبد الله بن أبي بثلث الجيش عائداً إلى المدينة . وبقي المسلمون الخلَّصُ السبعمائة ، في ظاهر الأمر هم الذين سيقاومون جيش الشرك الهائل ، المكون من ثلاثة آلاف مقاتل .

١٣ ـ نفسية الأطفال :

قرر رسول الله السن الإلزامي للجهاد هو سن البلوغ . فعندما وصل رسول الله ﷺ إلى مكان يقال لـه الشيخان قام

باستعراض الجيش وردّ من لم يبلغ الحلم من الأطفال ومنهم زيد ابن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، والبراء بن عازب ، وأبو سعيد الخدري . وأجاز رافعاً وسمرة .

أما رافع بن خديج ، فقد كان ماهراً في رماية النبل ، وفي بعض الأقوال أنه كان يقف على رؤوس أصابعه ليبدو كبيراً بين الرجال . وأما إجازة سمرة فقد تمت لأنه قال لأمه :

إن رسول الله أجاز رافعاً وأنا أصرعه .

فعلم رسول الله بذلك ، وتصارعا أمامه ، فصرع سمرة رافعاً، فأجاز الاثنين معاً .

١٤ ـ نفسية الشيوخ :

عمرو بن الجموح كان أعرجَ شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد . فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له : إن الله عز وجل قد عذرك . فأتى رسول الله فقال :

إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه . والخروج معك ، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة . فقال رسول الله ﷺ له : أما أنت فقد عذرك الله . وقال لبنيه :

ما عليكم ألا تمنعوه لعل الله أن يرزقه الشهادة . فخرج معه فقتل يوم أحد .

١٥ ـ نفسية الرجال :

الرسول القائد عليه الصلاة والسلام والعيون ترنو إليه ، وقف بين الصفوف وقد أمسك سيفاً بيده وهو يقول : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

وتحرك الأبطال الصناديد ، علي بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، عمر بن الخطاب يقول كل" منهم : أنا آخذه بحقه يا رسول الله •

ويمسك رسول الله السيف عنهم جميعاً • ويكرر النداء :

من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

ويتحرك من بين الصفوف صاحب عصابة الموت أبو دجانة ويسأل : وما حقه يا رسول الله ؟

قال : أن تضرب به العدو حتى ينحني •

وعرف أبو دجانة الشرط القاسي ، وقال مع ذلك :

أنا آخذه بحقه يا رسول الله •

وسلم رسول الله ﷺ السيف لأبي دجانة • فأنشد مغتبطاً :

أنا الذي عاهدني خليلي ... ونحن بالسفح لدى النخيل
أن لا أقوم الدهر بالكيول ... أضرب بسيف الله والرسول

١٦ ـ الغريزة الهابطة :

بينما يتناهى إلى سمعنا من المعسكر الآخر ؛ معسكر

المشركين • أصوات نسائهم وعلى رأسهن هند بنت عتبة • تحرك فيهن غريزة النخوة :

ويهـا بني عبـد الدار ويهـا حمـاة الأدبـار
ضربـاً بكل بتـار

ثم تحرك فيهن غريزة الجنس قائلة :

نحن بنـات طارق إن تقبلوا نعـانق
ونفرش النمـارق والمسك في المفارق
أو تدبروا نفـارق فراق غـير وامق

ونحبس أنفاسنا بـين الصفين لنشهد المعركـة في خطواتها المتلاحقة في ساح المعركة •

١٧ ـ المشركون يهاجمون المسلمين :

ورغم عنف الهجوم من الشرك وشدته ، فقد باء بالفشل نظراً لاختيار المسلمين مواقعهم الحصينة ، ونظراً لأن الرماة كانوا قادرين على رمي النبال في وجوه الخيل ، فأدى ذلك إلى إعادة المغامرين على أعقابهم خاسرين •

١٨ ـ الهجوم المضاد :

ابتدأ الهجوم الإسلامي المضاد، وقد سار على خطتين مهمتين:

الخطة الأولى : تركيز الهجوم على حملة لواء المشركين حيث يتجمع عنف القتال وصناديد الأبطال •

الخطة الثانية : خلخلة صفوف المشركين بالهجوم المكتسح من أبطال المسلمين .

١٩ ـ إبادة حملة لواء المشركين :

فلقد تساقط حملة اللواء واحداً بعد الآخر .

الأول : طلحة بن أبي طلحة ، وكان يسمى كبش الكتيبة . حيث دعا إلى البراز حتى إن رسول الله ﷺ همّ أن يخرج لمبارزته لولا أن خرج إليه الزبير ، ويصف لنا الأستاذ باشميل تلك المبارزة وكأنما نرمقها بأم أعيننا ، وقد وضعنا يدنا على قلوبنا إشفاقاً من النتيجة فيقول :

فأحجم الناس عنه . ولكن الزبير بن العوام أجابه إلى البراز، ولما كان طلحة راكباً جملاً ، لم يمهله الزبير حتى ينزل إلى الأرض، بل وثب إليه وثبة الليث حتى صار معه على جمله ، ثم اقتحم به الأرض ، وبرك عليه ، ثم عاجله بطعنة من سيفه فصلت رأسه عن جسده ، وعاد الزبير بعد مقتل قائد حملة اللواء . فسلمه رسول الله ﷺ وساماً أدخله مع الخالدين . وكان الوسام : إن لكل نبي حواريّ وحواريّ الزبير .

الثاني : أبو شيبة عثمان بن أبي طلحة برز له حمزة ، وحمل عليه حمزة بن عبد المطلب . فضربه على عاتقه ضربة بترت يده مع كتفه ، حتى وصلت إلى سرته ، فبانت رئته ، وبعد أن قضى عليه رجع وهو يقول :

أنا ابن ساقي الحجيج •

وثالث الأخوة أبو سعيد بن أبي طلحة رماه سعد بن أبي وقاص بسهم فأرداه قتيلاً •

وتتابع بعدها على حمل اللواء أولاد طلحة بن أبي طلحة كبش الكتيبة • جلاس ومسافع وكلاب ، فسقط ثلاثتهم صرعى بسيوف المسلمين •

٢٠ ــ إيمان بالله :

وبعد أن تساقط الستة أبنـاء البيت الواحد ، تتابع بنو عبد الدار على حمل اللواء فقتل أربعة آخرون • إلى أن استلم اللواء (صواب) وهو غلام حبشي لبني عبد الدار • فأبدى من ضروب البسالة ما فاق العشرة الكبار من بني عبد الدار • فقد ذكر ابن كثير أن هذا الغلام لما أخذ اللواء صار يقاتل حتى قطعت يداه ، ولئلا يسقط اللواء في الأرض برك عليه بصدره وعنقه وهو يقول : (اللهم هل أعزرت،أي هل أعذرت) ؟!! إنها نقطة تستحق الوقوف والتفكير الطويلين ، فصواب هذا ضحى بما لم يضح به أحد قبله ، وختم حياته وهو يخاطب الله رب العالمين قائلاً : اللهم هل أعزرت، ومع ذلك كان من أهل النار وكبار المشركين •

إن كلمـة الإيمان بالله التي يطرحها اليوم دعاة القوميـة المعتدلين ، لتجمع اليهود والنصارى والمسلمين والمجوس والمشركين تحت لواء واحد • ثم التخلي عن شرعية الإسلام • وإيهام الناس أن هؤلاء القوميين مؤمنون •

إن هذا الطرح مرفوض في منطق الإسلام • ولو كان مجرد كلمة ــ الإيمان بالله ــ على عمومها كافية لشعار يتجمع تحته الناس وأتباع الأديان • لكان أبو جهل فرعون هذه الأمة من الشهداء لأنه التجأ يوم بدر إلى الله رب السماء والأرض وقال : اللهم أضل الفريقين ، وأقطعنا للرحم ، وآتانا بما لا يعرف فأحنه الغداة •

ولكان صواب حامل لواء المشركين من شهداء الإسلام ، لأنه فقد يديه ، وأكب على اللواء بعنقه وصدره وهو يقول عند قتله ، ويذكر اسم الله عالياً : اللهم هل أعززت •

يا شباب الإسلام كونوا واعين لهذه المناورة ، واعلموا أن طرح شعار الإيمان بالله على غير الصورة التي عرضها الإسلام ــ مقابل التخلي عن الإسلام ، هو سبيل الشيطان والطاغوت •

نحن نريد الإسلام كاملاً ، والإسلام كاملاً ، ونقول لأولئك المناورين : أتتم جنود أبي جهل ، أتتم جنود صواب الذين قبلوا الإيمان بالله ورفضوا شريعة الإسلام :

(ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) •

ولئن كانت أصنام المناورين القدامى من الخشب والتمر والحجر • فأصنام المناورين الجدد من الأرض والوطن والقوم والبشر ، كلها في مفهوم الإسلام أصنام ووثنية • وكلها في مفهوم الإسلام طاغوت وجاهلية •

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله ، والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا) •

٢١ ــ خلخلة صفوف المشركين :

ومثّل هذه الخلخلة أربعة من الصناديد الأبطال :

أولهم : حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله الذي قاتل يومها وقيل إنه قتل ثلاثين من المشركين ، وكما وصفه وحشي قاتله :

(رأيته في عرض الناس كأنه جمل أورق يهد الناس بسيفه • ما يليق به شيء") • إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى فقال له حمزة :

هلمَّ إليَّ يا ابن مقطعة البظور ، فضربه ضربة فكأن ما أخطأ رأسه •

البطل الثاني : علي بن أبي طالب ، وبعد أن خاض في صفوف المشركين يقتل ويضرب ، كان لواء مصعب عرضة للخطر بعد أن قتل مصعب بن عمير رضي الله عنه بين يدي رسول الله وهو حامل لواء المسلمين •

انضوى رسول الله تحت راية الأنصار ، واستدعى علياً وقلده اللواء ، وأمره أن يتقدم الصفوف أمام المسلمين (فتقدم علي فقال : أنا أبو القصم) رداً على حامل لواء المشركين القائل : أنا قاصم من يبارزني ؟

قال أبو سعد بن أبي طلحة : هل لك يا أباالقصم في البراز من حاجة ؟

قال : نعم • فبرز بين الصفين فاختلفا ضربتين • فضربه علي فصرعه ، ثم انصرف عنه ولم يجهز عليه ، فقال له أصحابه : أفلا أجهزت عليه ؟ • قال : إنه استقبلني بعورته ، فعطفتني عليه الرحم، وعرفت أن الله عز وجل قد قتله •

البطل الثالث : أبو دجانة ، ولندع صاحب الوسام الخالد ، حواري رسول الله الزبير يحدثنا عن أبي دجانة قائلاً :

وجدت في نفسي حين سألت رسول الله السيف ، وأعطاه أبا دجانة ، فقلت : أنا ابن صفية عمته ، ومن قريش ، وسألته إياه فأعطاه أبا دجانة وتركني ، والله لأنظر ما يصنع ، فاتبعته ، فأخرج عصابة له حمراء فعصب بها رأسه • فقالت الأنصار : أخرج أبو دجانة عصابة الموت ، فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله ، وكان في المشركين رجل لايدع جريحاً إلا ذفف عليه ، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه ، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا ، فاختلفا ضربتين ، فضرب المشرك أبا دجانة ، فاتقاه بدرقته ، فعضت بسيفه ، وضربه أبو دجانة فقتله •

البطل الرابع : قزمان حليف بني ظفر ، فعن عاصم بن قتادة قال :

لما كان يوم أحد قاتل قزمان قتالاً شديداً ، ويقال أنه أول من رمى من جانب المسلمين بسهمٍ في المعركة ، وكان يرمي النبال كأنها الرمال ، ثم فعل بالسيف الأفاعيل ، وذكر أنه كان يكت كت الفحل ، وقد لقي المشركون منه الأهوال ، وقد صرع ثلاثة من حملة لواء المشركين . هم شريح بن قارظ ، وأبو زيد عمرو بن عبد مناف ، وولد شرحبيل بن هاشم العبدري . وعلى يده تمت إبادة حملة اللواء وقد قتل وحده قرابة عشرة من المشركين .

٢٢ ـ بطل إلى النار :

ولم تنته المعركة حتى آب كل واحد من الأربعة بظفر :

أما علي فهو أخو رسول الله وتقول بعض الروايات أن أحداً ما انتهت إلا وقد سمع الناس هاتفاً يهتف ولا يرى يقول :

لا سيف إلا ذو الفقار ، ولا فتى إلا علي .

وأما حمزة فقد فاز بلقب « سيد الشهداء » .

وأما أبو دجانة فقد كان صاحب سيف رسول الله ﷺ .

وأما قزمان حليف بني ظفر فقد فاز بالنار .

نعم بالنار ، لأنه لم يكن صادق الإيمان ، ولأنه قاتل حفاظاً على العزة القومية ودفاعاً عن الوطن .

يقول ابن الأثير في كتابه الكامل : إن قزمان هذا قد جرح جراحات كثيرة في المعركة يوم أحد فحمل إلى داره بالمدينة ، وكان

المسلمون يفدون عليه ويقولون: أبشر قزمان ، فيقول لهم بم أبشر؟ إن قاتلت إلا عن أحساب قومي • وفي رواية أن قتادة رضي الله عنه قال لقزمان : هنيئاً لك الشهادة يا أبا الغيداق • قال : إني والله يا أبا عمر ما قاتلت عن دين • ما قاتلت إلا على الحفاظ أن تسير قريش إلينا حتى تطأ أرضنا •

قالوا : ولما اشتدت على قزمان الجراحة مات منتحراً •• حيث أخذ سهماً من كنانته فقطع رواهشه فنزف منه الدم حتى مات !! وهذا توكيد حاسم من الرسول القائد صلوات الله عليه لا يقبل الجدل أن الذي لا يقاتل في سبيل الله وحده ولو كانت تحت راية محمد ﷺ فهو من أهل النار •

فقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال :

من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله •

إن النص النبوي يؤكد أنه لا يكفي أن يكون الرجل مؤمناً بالله ليكون شهيدا • بل لابد أن يكون هدفه من الحرب إعلاء كلمة الله ، وتطبيق شريعة الإسلام • ومن حقنا أن نسأل بعد ذلك : إذا كانت الحرب مع اليهود لتطبيق شريعة الإسلام كما يدعي بعض الناس • فلماذا لا يطبق الإسلام في الدول التي تحارب اسرائيل ؟ بل ولماذا يحارب دعاته فيها ؟

وإن كانت لاسترداد الأرض والحفاظ على أحساب القوم • فهم جنود قزمان لا جنود محمد ﷺ •

٢٣ ـ النصر المبين :

واستطاع سبعمائة مقاتل أن يحققوا نصراً ساحقاً على ثلاثة آلاف من المشركين ندع للأستاذ باشميل الحديث عنه :

لقد كانت هزيمة قريش هزيمة منكرة • إلى درجة أن الصنم الذي احتملته القيادة للتبرك به سقط من الجمل الذي كان يحمله، وتحطم تحت أقدام عابديه دون أن يفكر فيه أحد • لأن الهزيمة أنستهم كل شيء • وبلغت الهزيمة بالمشركين إلى أن جلوا عن معسكرهم تماماً فاحتله المسلمون وأحاطوا بمن فيه من نساء المشركين •

قال ابن إسحاق : ثم أنزل الله نصره على المؤمنين وصدقهم وعده فحسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر ، وكانت الهزيمة لاشك فيها •

قال في السيرة الحلبية : ثم لما قتل أصحاب لواء المشركين واحداً بعد واحد ولم يقدر أحد أن يدنو منه • انهزم المشركون ، وولوا الأدبار بعد فرحهم وضربهم بالدفوف ، وألقين الدفوف ، وقصدن الجبل كاشفات سيقانهن يرفعن ثيابهن • وتبع المسلمون المشركين يضعون فيهم السلاح وينهبون الغنائم •

٢٤ ـ معصية وهزيمة :

الرسول ﷺ يوصي الرماة قائلاً : احموا لنا ظهورنا لا يأتونا من خلفنا وارشقوهم بالنبل • فإن الخيل لا تقدم على النبل • إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم •

وفي خطابه الموجه لقائد الرماة :

انضح الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا . واثبت مكانك إن كانت لنا أو علينا . كما توضح بعض النصوص الأمر الصارم بهـذه القضية ، فتقول على لسان الرسول القائد : إن رأيتمونا تتخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم حتى أرسل إليكم.وإن رأيتمونا نقتتل فلا تغيثونا ولا تدفعوا عنا . أمر صريح لا يقبل النقاش . ولا يقبل التأويل.ومغادرة الجبل معصية ظاهرة لا لبس فيها ولا شبهة، ومع انتهاء المعركة بالنصر ، لاحت الدنيا بلبوس الغنيمة ، وتحلبت أشداق فريق من المؤمنين للدنيا . واستأذنوا قائدهم عبد الله بن جبير في ترك المواقع فرفض السماح لهم بذلك ، وذكرهم بأوامر الرسول في هذا الشأن . والإذن ليس له طالما أن هناك أمراً صادراً من القائد الأعلى عليه الصلاة والسلام بعدم المغادرة . وبين دافع الدنيا وشهوة الغنيمة . وبين الأمر الصريح بالثبات على الجبل . تغلبت عليهم الدنيا فتخلوا عن الجبل . فألغوا الأمر الأعلى من النبي ﷺ والأمر الأدنى من قائدهم ابن جبير .

ولم يدر هؤلاء الرماة الأربعون أن العقوبة ستنزل بالجيش كله نتيجة معصيتهم هم فقط . نفر قليل يعصي . فيعاقب الجيش كله ، ويتعرض الرسول القائد للموت . فإذا كانت الهزيمة الناشئة عن معصية أربعين فرداً أو أقل في خير مجتمعات الأرض ، والمعصية

في امر واحدٍ فقط فكيف نطالب اليوم بالنصر ، ومجتمعاتنا غارقة بالإثم ، والغة بالمعاصي إلى الحضيض ؟

٢٥ ـ المحنة القاسية :

انقسم المؤمنون بعد الهجوم الصاعق عليهم إلى ثلاث فرق :

الأولى : قررت متابعة القتال حتى الموت ، ومثل هؤلاء أنس بن النضر الذي وجد به سبعون طعنة ، ولم تعرفه أخته إلا ببنانه . بعد أن شوه الطعن والدم كل معالمه وهو يهتف : إني لأرى الجنة دون أحد .

الثانية : راحت تناقش التصرف المناسب في الجيش عقب إذاعة نبأ وفاة رسول الله ﷺ ، وتتشاور في التصرف الواجب اتباعه لحماية الجيش . وعلى رأس هؤلاء أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما .

الثالثة : فرقة زعزعتها الصدمة ، وفرت إلى المدينة من هول المفاجأة . وأما معسكر المنافقين الذي برز عقب هذه الطامة فقد انقسم إلى فرقتين كذلك :

وقال بعضهم : لو كان نبياً ما قتل فارجعوا إلى دينكم الأول.

وقالت : ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبي يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان . يا قوم إن محمداً قد قتل . فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم ويعتلوكم .

٢٦ ـ ثمن النصر :

وكان من الممكن للنفاق أن يسود ، وينتهي الإسلام ويصبح كأمس الدابر . لولا أن برز الإيمان ثابتاً كالطود ، أشد رهبة من الموت ، وأعظم صلابة من الهول وعلى رأس الإيمان محمد رسول الله ﷺ . فلقد أحيط بجدار بشري ثبت أمام كل عنف المشركين ورغبتهم في قتل محمد . لقد تمكن الشرك أن يشج وجه رسول الله ﷺ على يد عتبة بن أبي وقاص الذي كان أخوه سعد بن أبي وقاص يرمي بألف سهم ذوداً عن رسول الله ، وترمقه عين النبي قائلة :

ارم سعد ، فداك أبي وأمي يا سعد .

وتمكن الشرك على يد أبي عامر الفاسق أن يسقط رسول الله بالحفرة ولكن بعد أن سقط ابنه حنظلة بن أبي عامر لا على الأرض بل شهيداً على يدي الملائكة تحفه إلى الجنة ذوداً عن رسول الله صلوات الله عليه .

وعندما قاد الشرك أشرس هجماته لاغتيال رسول الله ﷺ ممثلاً بابن قمئة ، وأبي بن خلف . نهض الجدار البشري من اللحم والدم يترس دون رسول الله عليه الصلاة والسلام ، من لبناته طلحة بن عبيد الله الشهيد الحي الذي تلقى السهم بيده عوضاً عن وجه رسول الله . وأبو طلحة الأنصاري الذي وضع ظهره أمام وجه النبي تغور فيه السهام دون أن يتحرك . بينما كان أبو دجانة وأم عمارة يصدان الهجوم القريب بالسيف حتى لينظر

رسول الله حواليه يمنة ويسرة فلا يرى إلا أم عمارة وأبو دجانة ، وفي خط الدفاع الأول كان علي بن أبي طالب ، ومخيريق خير يهود، وأنس بن النضر ، وثابت بن الدحداح ، يقومون للكتائب الكاملة دون أن تتقدم في زحفها إلا على جثـة بشرية ، وكان حمزة بن عبد المطلب قد مضى إلى العالم الآخر بعد أن شارك في قتل مالايقل عن ثلاثين من المشركين ، كما تقول بعض الروايات •

٢٧ ــ صد الهجوم :

أوقف الزحف ، واستطاع الجدار البشري من اللحم والدم أن يحطم الهجوم المعاكس ؛ الجدار الذي كانت الجثث لبناته ، والدم مؤونته ، وتمكنت القيادة النبوية أن تستعيد القوى المبعثرة من جديد ، وتدعو إلى صعود الجبل واحتلاله معلنة على لسان رسول الله ﷺ : اللهم لا ينبغي لهم أن يعلونا • ومعلنة بنفس الوقت وهي تتجه نحو الجبل أن هذا الهجوم هو أشرس ما تستطيع القوى المعادية أن تفعله بعد هـذا اليوم ، وترسم أفق المستقبل الوضيء خطوط النصر الوهاجة :

لن ينالوا منا مثلها حتى نستلم الركن •

٢٨ ــ الجبل يحتله المسلمون من جديد :

واحتـل الجبل من جديد ، وأوقفت كل الكتائب المعادية من المشركين ، وزحزحت عن أهم أماكنها في الجبل ، وراح المشركون

ينعمون بالمقتلة العظيمة من المسلمين حين عجزوا عن التقدم شبراً واحداً باتجاه أرض المسلمين ، وسجّل التاريخ أعظم صمود عرفه في وجه أشرس هجوم ، حيث قام أفراد قلائل ببطولاتهم الفردية بصد جيش بأكمله ، وزحزحته عن مواقعه •

٢٩ ـ الإيمان ينطق :

وفزع رسول الله ﷺ لقرة عينه من أصحابه الذين سقطوا شهداء بين يديه ، وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وهو يقول :

أنا شهيد على هؤلاء ما من جرح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك ، ثم تلا :

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) واتصلت الأرض بالسماء وهم يصغون لرسول الأرض والسماء يناجي ربه ، وذلك بعد أن قال للمسلمين : اصطفوا حتى أثني على ربي عز وجل :

اللهم لك الحمد ، اللهم لا قابض لما بسطت ، ولا باسط لما قبضت ، ولا هادي لمن أضللت ، ولا ضال لمن هديت ، ولا معطي لما منعت ، ولا مانع لما أعطيت ، اللهم إني أسألك من بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك ، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول •

وراحت المدينة تعالج جرحاها بعد ذلك ، وفي القلوب أسىً ، وفي النفوس عزمات ، وبطولات النساء في الصبر تفوق بطولات

الشهـداء في التضحيات ، والنساء المسلمات أرامـل وثكالى ومفجوعات يرددن بلسان حالهن يقلن :

كل مصيبة دونك يا رسول الله جلل •

٣٠ ـ الجيش الجريح يلاحق العدو :

وتحرك الجيش الجريح بعد ثلاثة أيام قاصداً المشركين ، وأصر رسول الله أن لا يخرج بالجيش إلا من حضر أحداً ، وعقد على جبينه تاج الفخار هناك ، وبهذا الخروج الذي نقل نبأه معبد الخزاعي لأبي سفيان، حطم هجوماً قد بُيِّت على المدينة لاستئصال شأفة المسلمين هناك •

ورضي أبو سفيان والمشركون من الغنيمة بالإياب ، وردد التاريخ مع رسول الله ذكريات الجبل العظيم بين يدي القائد العظيم أحد جبل يحبنا ونحبه •

بيان" من الله

بيان لاكالبيانات، ليست مهمته الحديث عن التقدم والتراجع، وليست مهمته ذكر الأرباح والخسائر ، وليست مهمته التمويه والتضليل • بل كان الحساب من الله لجنده المؤمنين ، إنه حديث من رب السموات والأرض لهؤلاء السبعمائة ، وكشف كامل للأخطاء ، وثناء من الله على جنده المخلصين ، إنه بيان السماء للأرض ومهمته كما قال القرآن نفسه :

(هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين) •

فهو إعلام للناس من جهة ، وتربية وهدىً للمؤمنين من جهة ثانية •

١ ــ فالمؤمنون هم وحدهم جنود المعركة :

(وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم) •

٢ ــ كل المؤمنين في المعركة : بنو حارثة وبنو سلمة ، وقد رأوا انخزال عبد الله بن أبي ، وقد حدثتهم أنفسهم بالمسير مع ابن أبي ، وكانوا على شفير الهاوية فلو انضموا لابن أبي لخرجوا من حظيرة الإيمان إلى مستنقع النفاق (إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) •

٣ ـ وحدة العقيدة لاكثرة العدد : ولن يضير المؤمنين أن يكونوا في العدد قلة (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون) .

٤ ـ الملائكة تكمل العدد : (إذ تقول للمؤمنين آلن يكفيكم أن يُمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) .

٥ ـ المؤمنون والملائكة لا يملكون النصر ، بل هم أدوات لقدر الله يحقق بهم نصره : (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) . منه القوة ، وهو الحكيم في هبته للنصر ، ومتى يهبه .

٦ ـ سيد الخلق لايملك النصر : (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) .

يا لله ، البشر ممثلون بسيد ولد آدم وقد جرح وجهه ، وشجت شفته ، وكسرت رباعيته ، وخضب الدم وجهه ، ووقع في الحفرة ، راح يمسح الدم عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى الله ، وإذا برب الخلق يؤكد لسيد الخلق أن لا رأي له في فلاح القوم أو هلاكهم فالأمر كله لله : (ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب

من يشاء ، والله غفور رحيم) • إذن قد يتوب الله عليهم ، ويفلحون. وقد خضبوا وجه نبيهم بالدم •

٧ ــ مواصفات الجنود المؤمنين في الجيش :

إنها شروط الجندية في جيش الإيمان :

آ ــ عدم أكل الربا وتقوى الله : (ياأيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون) •

ب ــ الخوف من النار : (واتقوا النار التي أعدت للكافرين)•

جـ ــ طاعة الله والرسول : (وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) •

د ــ المسارعة للمغفرة والجنة : (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) •

هـ ــ الانفاق والكظم والعفو : (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ ، والعافين عن النـاس ، والله يحب المحسنين) •

و ــ الاستغفار عند ظلم النفس : (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) •

أما النتيجة : (أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين) •

٨ ــ الاعتبار بالماضين من الطغاة : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) .

وهكذا نرى أن الفقرات الثمانية تحدد هوية الجيش المؤمن، ومن هم المقصودون في الحديث .

تلكم ياشباب الإسلام مقدمة البيان وإليكم تفاصيله .

* * *

١ ــ اهتداؤنا بالبيان يعني أننا مؤمنون :

(هذا بيان للناس وهدىً وموعظة للمتقين) .

٢ ــ المؤمنون هم الأعلون ، وتلك أولى فقرات البيان :

(ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين) .

٣ ــ لا عبرة بالخسائر المادية : (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ...) .

٤ ــ المحنة ضرورة ، لماذا ؟

آ ــ (وليعلم الله الذين آمنوا) .

ب ــ (ويتخذ منكم شهداء) .

جـ ــ (والله لايحب الظالمين) . فلو أحبهم الله لاتخذ منهم شهداء . بل يقصمهم ويهزمهم . إنها محنة الحب للمؤمنين الصادقين .

د ــ (ليمحص الله الذين آمنوا) .

هـ ــ (ويمحق الكافرين) .

لا بد من أن يتميز المحبون المخلصون من الأدعياء ، وشتان شتان بين التمحيص والإبادة .

٥ ــ لا جنة بلا جهاد : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) .

٦ ــ بين الحقيقة والادعاء : (ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) .

٧ ــ الارتباط بالرسالة لا بشخص الرسول : (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين) .

٨ ــ النصر ثواب الدنيا ، والمغفرة ثواب الآخرة : (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ؟ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين) .

٩ ــ الرباني لا يعرف الوهن والضعف : (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين) .

١٠ ــ غاية الرباني المغفرة فالثبات فالنصر : (وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، وإسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا

وانصرنا على القوم الكافرين ، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) •

١١ ــ الخسارة بطاعة الكافرين : (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) •

١٢ ــ الله خير الناصرين : وإن كانت الانطلاقة من القومية حفاظاً على العدد وجمعاً للصفوف لتحقيق النصر فنحن مخطئون • (بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) إنه يغنيكم عن الناصرين غير المؤمنين• اقتداءً برسول الله ﷺ يوم رد كتيبة اليهود قائلاً : إنا لا ننتصر بأهل الكفر على أهل الشرك • إن أهل الكفر هم اليهود وهم النصارى وهم المرتدون ، ولا يعفيهم إيمانهم المشوه بالله من الكفر ، ولا يدخلهم في حظيرة المؤمنين •

١٣ ــ الرعب من الله يلقى على الكافرين : أي كافر كان • ولأنه أشرك بالله مالم ينزل به سلطانا وهو ظالم وهو في النار • ولا رعب مع الإيمان الصادق •

(سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ومأواهم النار ، وبئس مثوى الظالمين) •

١٤ ــ النصر تم : (ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسوهم بإذنه) •

١٥ ــ أسباب فقدان النصر : الفشل والتنازع في الأمر وحب الدنيا (••• حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ، وعصيتم من بعد

ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم) .

١٦ ــ الابتلاء عفو وفضل : (ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين) ولولا عفو الله لانتهى المسلمون ، ولولا فضل الله لأبيد المسلمون . ولكن عين الله ترعاهم حتى في الابتلاء والعقوبة . فالمؤمن ، يفشل ، والمؤمن يعصي ، والمؤمن يحب الدنيا . فإن عوقب فيها فذلك عفو من الله وفضل كبير .

١٧ ــ لاحزن على عقوبة الخطيئة : (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غماً بغم ، لكي لاتحزنوا على مافاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون) .

١٨ ــ الصامدون كوفئوا بالأمن النفسي : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشى طائفة منكم..) . فقد ألقى الله على المسلمين النعاس أمنة منه ، ما منهم رجل إلا يغط غطيطاً حتى تناطحت الرؤوس ، وسقط سيف بشر بن البراء بن معرور من يده، وسقط سيف طلحة من يده ، ثم فزعوا وكأنهم لم يصبهم من قبل نكبة .

١٩ ــ المؤمن الضعيف يتزلزل : (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون : هل لنا من الأمر شيء ؟ قل إن الأمر كله لله ، يخفون في أنفسهم مالايبدون لك ،

يقولون : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا • قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) •

٢٠ ــ المعركة تكشف مستويات الإيمان : (•• وليبتلي الله ما في صدوركم،وليمحص ما في قلوبكم،والله عليم بذات الصدور)•

٢١ ــ الخطيئة تورث الفرار : (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم) • فلقد كان التولي نتيجة استدراج من الشيطان • ونتيجة خطأ أو معصية أورثت وهناً في القلب • وضعفاً في الإيمان • أدى إلى التولي يوم الزحف ، ومن فضل الله عليهم أنه عفا عنهم ، وكفاهم من العقوبة الجزع النفسي والندم الداخلي العميق • وهكذا نرى أن مستويات الإيمان والمؤمنين تتفاوت •

فمنهم الرباني : الذي لا يعزف الضعف والوهن والاستكانة• قلبه موصول بالله يسأله المغفرة والثبات والنصر •

ومنهم الزال : تأتي العقوبة إليه وتنزل به البلية ، فتذكره ربه وتعيده إليه •

ومنهم المخطىء : الذي يمشي خطوات مع الشيطان ، فينقطع قلبه عن الله في فترات قد تخرجه من حضن الإسلام ببعض اللوثات الجاهلية ، وقد تجعله محفوفاً بالجزع مكتظاً بالخوف حتى يؤوب إلى الله ، وتكون العقوبة النفسية والشعورية أضخم في عالم الواقع من العقوبة الحسية •

٢٢ ــ الأخوة بين الكافرين والمنافقين : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزّىً لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت ، والله بما تعملون بصير) .
فالحسرة تأكل قلب المنافق من الخوف ، وتأكل قلبه جزعاً من الموت، ويثّاقل إلى الحياة بل ويهيم في حبها وترتعد فرائصه من الموت .

٣٢ ــ المغفرة ولقاء الله : (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون) .

وشتان بين من يرى الموت حسرة على ملذاته ، وحرقاً لفؤاده على شهواته من المنافقين والكافرين . وبين من يرى الموت والقتل في سبيل الله زغرودة النصر وربيع الأماني بالمغفرة والرحمة ولقاء الله من المؤمنين .

٢٤ ــ حدود الرسالة : رحمة ولين ، عفو واستغفار وشورى وعزيمة وتوكل .

(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر . فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) .

وكما يقول الشهيد سيد قطب :

« ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورى بعد المعركة كذلك تثبيتاً

للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة ـ إن الإسلام لا يؤجل مزاولة المبدأ حتى تستعد الأمة لمزاولته . وإن الأخطاء في مزاولته مهما بلغت من الجسامة لاتبرر إلغاءه .. كما أن المزاولة العملية للمبادىء تتجلى في تصرف الرسول ﷺ عندما رفض أن يعود إلى الشورى بعد العزم ، واعتبار هـذا تردداً وأرجحة وذلك صيانـة لمبدأ الشورى . ومن أن يصبح المؤمنون وسيلة للأرجحة أو الشلل الحركي » .

٢٥ ـ لا نصر إلا من الله : (إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .

هل يعقل العرب اليوم هـذا المبدأ . ولو تجمعت أمريكا وأعطت اليهود ألف طائرة وثلاثة آلاف دبابة . فإن كان الله معنا . فلن نهزم ، ولو تجمعت كل دول العالم فإن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده .

من يا قوم ؟ : روسيا ، الرأي العـام العالمي ؟ والمعسكر الاشتراكي ؟ كل قوى الأرض ؟ فإن خذلنا الله من ذا الذي ينصرنا من بعده .

ونحن أمام شيئين :

إما أن نكون كافرين . فلنبحث عن غير الله .

وإما أن نكون مؤمنين . فيجب أن نعتقد اعتقـاداً لا يقبل

الشك أن الذي ينصر هو الله ، وأن الذي يخذل هو الله ، ولا قبل لأحد بحرب الله .

وعلى الله فليتوكل المؤمنون .

٢٦ ــ وما كان لنبي أن يغلّ :

فالقائد لا بد أن يكون القدوة لجنده . فكيف إذا كان نبياً.

القائد الذي يتعب ليستريح جنده ، ويفتقر ليغتنوا ، ويحرم نفسه ليعطيهم ، ويجهد ليسعدوا ، فما يمكن للرسول القدوة أن يغلّ .

ولقد كان النموذج الحي الخالد أبد الدهر على ترفعه عن دنياه . ومثل هذا المعنى بقوله وفعله حين أخذ قبضة من وبر جمله ونادى في المسلمين قائلاً :

والله مالي من مالكم ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم . وهو الذي رفض عليه الصلاة والسلام أن يعطي أحب خلق الله إليه ، فاطمة بنت محمد . رقيقاً من الرقيق . وقد رأى يديها تدمى من أثر الطحين . قائلاً لها ولأهل الأرض عبر الدهور :

لا أعطيكِ وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم من الجوع .

أما قادة اليوم . فماذا عنهم ؟ ! ماذا عن أثرياء الحروب ؟ !

ما كان لقائد أن لا يغل ! !

فهذه سمة المجتمع الجاهلي .

حتى في أرض الاشتراكيات • من هم أغنى الناس ؟ من أصحاب الملايين ؟ هم القادة الذين يغلون ويستغلون •

وسيحملون هذه الأوزار على ظهرانيهم يوم القيامة •

(ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة) •

هذا هو المال الحرام الذي كسبوه ، وهم اليوم يوفوه •

(ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون) •

٢٧ ــ نعم ليسوا سواء : (أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) • المنطق القومي يقول: أبناء العرب متساوون بغض النظر عن الدين • المنطق الوطني يقول: المواطنون متساوون أمام القانون لا تمييز بينهم على أساس دينٍ أو جنس أو طائفة •

الله تعالى يقول : (أَفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير • هم درجات عند الله • والله بصير بما يعملون) •

٢٨ ــ من الظلمات إلى النور : (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياتــه ، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) •

إنها منة الرسالة من الله لخلقه ، وكم الفرق شاسع ؟ وكم النقلة بعيدة بين الضياع في التيه ، والانبثاق من القرآن •

٢٩ ــ عودة إلى المعركة : فلماذا المصيبة ؟ لماذا الانتكاسة ؟ إنها من النفس ، من الأعماق • إن الضعف في الداخل • ليس من السلاح • وليس من تكالب الأعداء • إنها من النفس • (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها ، قلتم : أنَّى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) •

٣٠ ــ المصيبة للتمييز والتطهير • إنها بإذن الله ، وعلمه وإرادته • لا بد من تميز الصفوف ، لابد من كشف المؤمن من المنافق ، لابد من تطهير الصف الداخلي ، لابد من صدق التعاقد مع الله •

(وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان ، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون • الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ما قتلوا ؛ قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) •

ولقد تمت التصفية ، وانخزل عبد الله بن أبي بثلث الجيش • فاتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام وقال لهم : يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم • فقالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم • ولكنا لانرى أن يكون قتال• فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله • فسيغني الله عنكم نبيه •

كيف يمكن أن يكون هؤلاء المتخاذلون الخائرون المنافقون. مثل من قدّموا دمهم وحياتهم ولحمهم دون رسول الله . ولو تم النصر ، وانتهت المعركة في الجولة الأولى لبقي كثير من النوعيات الخائرة المتخاذلة التي همت أن تفشل في جانب الادعاء والتبجح .

٣١ ــ أما مقام الشهداء فياله من مقام :

(لقي رسول الله ﷺ جابر بن عبد الله فقال : يا جابر ألا أحدثك عن أبيك ؟ ــ وكان أبوه قد استشهد في أحد ــ قلت : بلى يا رسول الله . قال : إن الله لم يكلم أحداً شفاهاً وكلم أباك فقال : تمنّ يا عبدي . فقال : يا رب أتمنى أن تعيدني إلى الدنيا فأقتل في سبيلك ثانية . فقال الله له : أما هذه فقد سبق القول مني أنهم إليها لا يرجعون . تمنّ غير ذلك . فقال : يا رب أخبر إذن إخواننا الذين في الدنيا أننـــا أحياء في الجنة نأكل وتتنعم حتى لاينكلوا عن الجهاد ، ولا يتخلفوا عن رسول الله . فأنزل الله عز وجل : (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) .

٣٢ ــ تحدي الطاغوت : وبالرغم من الجراحات التي أثقلت جند الله . كان الجيش يخرج مع إطلالة الفجر لملاحقة المشركين ، ومطاردتهم . نستمع إلى مشاعر الجيش وآلامه على لسان أحد جنوده الذي يقول :

شهدت أحداً مع رسول الله ﷺ أنا وأخ لي • فرجعنا جريحين فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو قلت لأخي : أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟ والله ما لنا من دابة نركبها • وما منا إلا جريح ثقيل • فخرجنا مع رسول الله ﷺ وكنت أيسر جرحاً • فكان أخي إذا غلب حملته عقبة ، ومشى عقبة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون • أما بيان الله تعالى عن الحملة فكان : (الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح ، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) •

٣٣ ــ حسبنا الله ونعم الوكيل : أبو سفيان تحتقن روحه في حلقه يوم عاد مع جيشه دون أن يستأصل شأفة المسلمين • وقلبه يخفق رعباً أن يلحق به جيش محمد • فالتقى وهو يغذ السير بوفد من بني عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة• قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ــ التجارة ــ • قال : فهل أنتم مبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم • قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم •

إنها محاولة نفسية لتحقيق نصر مزعوم ، كاذب ، ويحسب أن ماحل به من الرعب يوم أبلغ بمسير محمد إليه سوف ينزل بالمسلمين • ولكن هيهات يا أبا سفيان • فاسمع شهادة الله فيهم يوم بلغهم النبأ •

(الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم • فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم • إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه • فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) •

٣٤ ــ الفئة المسلمة صفوة الله من خلقه :

وقد تكون مثخنة بالجراح ، وقد تكون عبقة بالآلام ، وقد تكون مثقلة بالتضحيات ، ولكنها تبقى صفوة الله من خلقه ، ولو تبجح الكفر وجنوده ، ولو طغى الباطل وتمرد ، فهذه في ميزان الله خواء ، فالمواساة إذن من الله يوم تطبق الأرض على المؤمنين يقول الله لنبيه الكريم :

(ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئاً • يريد الله أن لا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم ، إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم • ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم ، إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) •

* * *

إمام المربين

سنقف مع حديث نبوي واحد لإمام المربين محمد عليه الصلاة والسلام نفقه منه أصول التربية الخالدة للطفل :

(عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال : أتى علي رسول الله ﷺ وأنا ألعب مع الغلمان فسلم علينا ، فبعثني رسول الله في حاجته ، فأبطأت على أمي ، فلما جئت قالت : ما حبسك ؟ فقلت : بعثني رسول الله في حاجة . قالت : ما حاجته ؟ قلت إنها سر ، قالت : لا تخبرن بسر رسول الله ﷺ أحداً ، قال أنس : والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت).مسلم وأخرج بعضه البخاري مختصراً .

١ ــ أنس بن مالك طفل يدرج في العاشرة من عمره مهمته الأساسية خدمة رسول الله ﷺ ، والخادم عليه أن يكون ليل نهار بين يدي سيده ، واحتاج الرسول ﷺ حاجة ضرورية ملحة ولم يجد خادمه بين يديه ، هل بعث وراءه من يجلبه عنوة لينزل به عقوبته كما يفعل المربي عند خطأ تلميذه أبداً ، بل خرج هو وراءه يبحث عنه . فلا تجد المعلمة إذن غضاضة أن تبحث عن تلميذتها إن كان لها بها حاجة ، وهذا لا ينقص من شأنها ، والتربية الحديثة تقوم على الصداقة بين المربي والطفل .

٢ ــ (أتى علي رسول الله وأنا ألعب مع الغلمان) ، فلقد ترك أنس مهمته الرئيسية وخرج يلعب مع الغلمان ، لابد له إذن من عقوبة حسب ما هو راسخ في أذهاننا ، وضع اللعب في وقت

العمل والجد • ولكن واقعيين ، كيف تفعل المعلمة يوم ترى التلميذة تعبث بحقيبتها أو تكلم رفيقتها أثنـاء الدرس ، إنهـا تستشيط غضباً وتعتبر ذلك إهانة لها ، وتنزل بها العقوبة القاسية، وترى أن التلميذة لا تحترم الدرس ولا المعلمة ولا العلم •

هذا مفهوم خاطىء عرفنـا خطأه من رسول الله ﷺ ، فاهتمامات الطفل هي الأولى بالرعاية لا اهتمامات المربي ، ومهمة المعلمة هي القـدرة على تصريف الطاقات وإثـارة الاهتمامات بالإضافة إلى ناحية أخرى مهمة وهي حاجة الطفل الملحة إلى اللعب، ولا بد أن تلبى حاجته ، ومن أجل هذا لم نجد رسول الله ﷺ يغضب أو يزمجر أو يتوعد ، وحاشاه عليه الصلاة والسلام ، فلقد روى أنس رضي الله عنه في حديث آخر أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يضرب خادماً ولا امرأة قط ، ويقول أنس :

خدمت رسول الله ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط ، وما قال لي لشيء فعلته لم فعلته، وما قال لي لشيء تركته لم تركته•

٣ ـ (فسلم علينـا) يا لله •• سلم على الأطفال اللاهين العابثين ، ولم يتفرق الاطفال عند رؤيته ذعراً منه • فهم يشعرون أن صديقاً حبيباً لهم أتى لمكان لعبهم فسلم عليهم فردوا عليه السلام ، إنها إنماء شخصية الطفل ومواهبه ، وكم يشعر الطفل بشخصيته وقيمته يوم يرى رسول الله يمر عليه وهو يلعب فيلقي عليه السلام • هل خطر بذهن مربياتنا اليوم أن يلقين السلام على

طالباتهن حتى وهن يلعبن ، إن كانت التربية الحديثة تدعو اليوم إلى ذلك وتعتبر الطفل وحاجاته ومواهبه محور العملية التعليمية لا المربي ، فلقد كان إمام المربين قبل أربعة عشر قرناً هو الذي قدم لنا ذلك في صورة تربية عملية سلوكية .

٤ ــ فبعثني في حاجته ، وضن علينا أنس أن يخبرنا بهذه الحاجة ، فلا شك أنه ساره بها من بين زملائه ، ولو قالها له علناً لعرفها كل رفاقه ، لقد اختاره من بين رفاقه لمهمة ، وتظهر لأعيننا الآن فكرة الفروق الفرديــة ومراعاتها ، فكل طفل لــه طاقاته وإمكاناته .

لقد راعى رسول الله ﷺ شخصيات الأطفال جميعاً يوم ألقى عليهم السلام وهم يلعبون ، ثم راعى الفروق الفردية بطبيعة ظروفهم ، فأنس يعمل عنده ، فساره رسول الله بحاجته وبعثه بها .

٥ ــ وكم يشعر أنس بثقة لاحد لها ، واعتزاز لاحد له ، يوم رضي رسول الله أن يساره ويبعثه بحاجته ، إنه يحس أنه ملك الدنيا بأسرها . وكل ما تحلم به التربية الحديثة اليوم هو النمو الصحيح لشخصية الطفل، وإمكاناته، ولقد كان لهذا السلوك النبوي أعظم الأثر في نمو شخصية الطفل ، نرى أثره في نهاية الحديث .

٦ ــ (فأبطأتُ على أمي) وهذا يعطينا جانباً من الاهتمام الشخصي لدى أنس بحاجة رسول الله ﷺ ، ورغم أنه يعلم أن

أمه سوف تحاسبه على تأخره ولكنه تناسى ذلك أمام الاهتمام الكبير الذي استثير لديه ، وأمام رغبته الملحة أن يلبي حاجة رسول الله ﷺ مهما كلفه ذلك من ثمن ، ومن أهم ما تركز عليه التربية الحديثة لتحقيق العملية التعليمية السليمة هو إثارة التشويق والاهتمام ، ليتلقى الطفل العلم من ذاته لا من إرادة خارجة عنه أو مفروضة عليه .

٧ ـ (فلما جئت قالت : ما حبسك) ؟

ونتنقل هنا إلى دور البيت في التربية ، والبيت مسؤول أن يهتم بتصرفات أطفاله ، وأن يتعرف على سلوكهم ، فلا غرابة أن تسأل المربية العظيمة والمسلمة الخالدة أم سُلَيم ابنها عن مكان وأسباب احتباسه ، وهي تعلم أن على عاتقها مسؤولية ضخمة في دراسة تصرفات ابنها وسلوكه ، وهذا ما تدعو التربية الحديثة إليه من الاهتمام بسلوك التلاميذ والتعرف على نفسياتهم .

٨ ـ قلت : كنت في حاجة رسول الله ﷺ . فهي الشخصية النامية السليمة التي اعتدت بوجودها ، ووثقت باستقلالها حتى عن أمها . كنت في حاجة رسول الله فهو صاحب مسؤولية، وصاحب ثقة ، وصاحب قضية ، ولو كان طفلا يلعب مع الغلمان قبل لحظات، أما الآن فهو يحمل أعباء خاصة به وهي في حاجة رسول الله التي لباها .

٩ ـ (قالت : ما حاجته ؟ قلت : إنها سر) .

يالله •• طفل في العاشرة من عمره تسأله أمه التي لا يمكن أن يختبىء عليها سر والتي تعرف كل تحركات ابنها • وتحصي كل شوارده ، ومع هذا يقف أنس الطفل بشخصيته المتميزة وكيانه المستقل ، وثقته الكبيرة ليقول لأمه إنها سر •

إنها الثمرة الثالثة من ثمرات التربية النبوية ، فالثمرة الأولى: إشاعة الثقة في نفسية الطفل يوم سارّه من بين زملائه ، والثمرة الثانية : إثارة الاهتمام يوم أبطأ على أمه لاهتمامه بحاجة رسول الله ﷺ ، والثمرة الثالثة : النمو السليم والمتكامل يوم احتفظ بسر رسول الله حتى عن أمه أقرب المقربين إليه •

١٠ ــ (قالت : لا تخبرن بسر رسول الله أحدا ••) :

يالروعة التربية •• البيت المسلم بجانب التربية النبوية ، إن الأم أحياناً لتضرب ابنتها وتؤذيها يوم تكتم شيئاً عنها ، ويدفعها دافع الفضول إلى إدراجها في المزالق لمحاولة استخراج أسرارها ، بل وتعتبر ذلك إهانة لها يوم لا تسارها بكل شيء ، بينما نجد المربية العظيمة أم سليم ــ ومنذ عرفت من ابنها الصغير أن حاجة رسول الله ﷺ سر ، وأنها خاصة به وأن هذا الطفل محط أسرار نبيه ، ومحل ثقته ــ تابعت مهمة التربية النبوية وهيأت لها المجال لتأخذ مداها الصحيح ، فلم تضرب ولم تثر ولم تستدرج بل شجعت على هذا النمو ، وعلى هذه الثقة وعلى هذا التكوين الرائع للشخصية فقالت لابنها الحبيب : لا تخبرنّ بسر رسول

الله أحداً ، وكم وجدنا كل طرائق التربيـــة الحديثة تفشل مع التلاميذ لأن البيت لا يتعاون مع المدرسة •

١١ ـــ يقول أنس : (والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت) أي سر رسول الله ﷺ •

إننا الآن لسنا مع طفل ، بل مع شيخ كبير يقص على أحد تلاميذه الشباب ذكرى من ذكريات طفولته ، إننا مع أنس الصحابي الجليل محدّث أهل البصرة ، وقد تحلّق حوله تلامذته الشباب ، وعلى رأسهم ثابت ، وحدثهم عن قصة من قصص طفولته التي أثّرت في نفسه حتى هذا السن ، فرواها بتفاصيلها وجزئياتها لشدة تأثره بها •

ويمضي كل هذا الزمن ، وينتقل أنس من الطفولة إلى المراهقة ، ومن الفتوة إلى الشباب ، ومن الشباب للكهولة فالشيخوخة ، ويعيش قرابة مائة عام ، ويعاصر دولاً كاملة ، تنهار وتحيا أمام عينه ، ويبقى حافظاً سر رسول الله عن كل إنسان في الأرض ، منذ أن تلقاه وهو طفل يلعب مع الغلمان ويقول للتابعي العظيم :

(والله لو حدثت به أحداً لحدثتك به يا ثابت) •

درس عملي في التربية النبوية شهدناه بأم أعيننا ، ودخلنا مختبره ، وعشنا نتائجه وثمراته في شريط طويل من خلال كلمات قلائل ساقها لنا أنس الصحابي العظيم خادم رسول الله •

ولئن رأينا اليوم التربية الحديثة في كل ما قدمت من نظريات لتربية الطفل والاهتمام فيه ، نراها في الواقع العملي تقدم لنـــا

جيلاً فاشلاً في أخلاقه وسلوكه ملأ الدنيا بالانحرافات ، وامتلأت نفوسه بالقلق ، وأعصابه بالأمراض رغم تفوقه المادي الهائل في عالم المادة .

نحن إذن أمام نموذج عملي واحد من بين آلاف وعشرات الألوف من النماذج رأينا فيه الجانب النظري في التربية ، والجانب العملي وثمرة التربية التي حفظت سر رسول الله ﷺ مائة عام ، ثم استمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لايعلمه إلا الله رب العالمين .

وحين نضع نصب أعيننا المبادىء الأربعة للتربية الحديثة :

١ ـ التعليم الذاتي .

٢ ـ العلم للخبرة العملية .

٣ ـ الفروق الفردية .

٤ ـ تنمية المواهب والإبداع .

نجد هذا الدرس النبوي قد تناول هذه المبادىء الأربعة ، وهو في طريقه بالإضافة إلى مبادىء أخرى ، ومنطلقات تجاوزت التربية الحديثة في مبادئها ومعطياتها .

كم نحن بحاجة إلى أن نفقه تاريخنا وتراثنا وديننا وإسلامنا فنرى فيه أكثر بكثير مما يقدمه لنا الغرب في عالم التربية والسلوك .

وليكن هذا الدرس حافزاً لنا لمتابعة البحث على هذا النهج .. والله من وراء القصد (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

* * *

عمرو بن سلمة ... وعالم الطفولة

كان ابن البادية . نفسه متسعة اتساع الصحراء لاتعرف الحدود ولا القيود . ما إن يلمح غباراً من بعيد يثار حتى يشتد مع رفاقه لينظر من الركبان ، يدفعه حب الاستطلاع لأن يسمع كل شيء ، ويرى كل شيء .

وكان مما لفت انتباهه ، فأصاخ إليه سمعه كلام يسحر لبه ، ويأسر فؤاده وسرعان ما ينطبع على قلبه ، وكأنه نبت معه ، واستقر في أعماقه ، ويسمع الركبان يقولون : إنه القرآن ، وإن هذا القرآن كلام الله ، ومن عند الله فيزداد به تعلقاً وله انجذاباً .

إنه ابن السابعة من العمر ، وكلما سمع بركب قادم يمضي سراعاً ليسمع هذا القرآن . وكم تردد على ذهنه اسم محمد بن عبد الله القرشي ، وهو الذي ينزل القرآن على قلبه ، رأى ذات يوم مضارب قومه تموج بأحداث جسام حين تناقلوا أن محمد بن عبد الله قد فتح مكة ، ودانت مكة بالإسلام ، أحس في صدره فرحاً لا يدري مصدره فهو يحفظ هذا القرآن الذي نزل على محمد عليه الصلاة والسلام ، إنه لن ينسى أبداً ذلك اليوم الذي اختارت فيه عشيرته أباه سلمة ليكون رسولها إلى محمد في المدينة لتتعرف على هذا الدين الجديد .

محمد بن عبد الله ؟ لقد ملأ حب رسول الله ﷺ قلبه ولم يره بعد ، وكلما خلد إلى نفسه راح يقرأ هذا الكلام العجيب عن ظهر قلب ، لله ما أروعه وما أحلاه ، وأين غاب عقل قومه عنه ؟!!

كانت المفاجأة المنتظرة ، لقد حضر أبوه من المدينة . وما هي إلا لحظات حتى امتلأ البيت بالزوار ، هذا يصيح من هنا ، وذاك يسأل من هناك ، وثالث يستفسر ، وساد لغط كبير ، ماذا رأيت ؟ ماذا عن محمد ؟ هل هو نبي الله حقا ؟ وراح سلمة يتكلم ، وأصاخ الجميع كأنما على رؤوسهم الطير .

قال سلمة بصوت جهوري تتردد أصداؤه في الفضاء الرهيب (جئت من عند النبي ﷺ حقاً ، فقال : صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا).

وأثلجت صدور الجميع ، وظهر الارتياح على الوجوه ، والبسمة على الشفاه جئتكم من عند النبي ﷺ .

إذن لابد من التنفيذ ، لابد من الصلاة .

وبدأ اللغط من جديد .

من الذي يحفظ القرآن ؟ صلتنا منقطعة بمدينة محمد - عليه الصلاة والسلام - وحار القوم ، على حين ارتفع من أقصى المجلس ، ومن وراء الرحل صوت ندي لطفل ينادي : أنا أحفظ القرآن .

وراحت بسمات الاستخفاف والعجب تبــدو من جديد ؛ خاصة عند من سمع بعض آيات من القرآن ، وفي نوعٍ من الثناء والتشجيع قالوا له : أسمعنا ما تحفظ من القرآن •

وراح عمرو بن سلمة ابن السابعة من العمر ، يتلو آيات القرآن بسعادة غامرة ونشوة ظافرة ؛ آه ، ما أحلى هذا الكلام •

وانتهى الصخب والضجيج ، وران على الجميع الصمت •

وصوت عمرو يملأ الرحب ، ندياً شجياً ، مترعاً بالخشوع والحنان • وأطرق الجميع واجمين •

وقالوا جميعاً بصوت واحد : إمامنا عمرو بن سلمة •

« فنظروا فلم يكن أكثر قرآناً مني لما كنت أتلقى من الركبان فقدموني بين أيديهم ، وسارعوا يتوضؤون يعلم بعضهم بعضا ، ثم ينتظمون صفوفاً متتابعة •

ويتقدم عمرو بن سلمة ــ طفل السابعة من العمر ــ أمامهم جميعاً بثوبه المهترىء القصير الذي يحاذي ركبته أو دونها بقليل •

يا الله ، ابن سبع سنين ــ يؤم القبيلة كاملة ؟ ! !

وتناهى الأمر إلى النساء •

ورحن يتنازعن ، هل الرجال أولى منا بمحمد ﷺ ، وبدأن يثرن الجو في بيوتهن ، ومضين يتعلمن الصلاة والوضوء ، ولا بد لهن من إمام ••• يا عمرو ، تقدم فصلِّ إماماً بالنساء •

وكالعصفور المغرد على البان ، تقدم الطفل الحبيب بثوبه الممزق القصير ، وراح يصلي بالنساء ، وامتلأت القبيلة بالغبطة والحبور، لقد صاروا مسلمين حقا، إنهم يشهدون أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله • الصوت جميل والخشوع مهيب ، إلا منظراً نشازاً استلفت اتباه نسوة العشيرة ، ولم ينتبه له رجالها ، ورحن يتحدثن به همساً ، ولما لم يكن بد من إذاعة الخبر ارتفع صوت امرأة من الحي :

(ألا تغطون عنا إست قارئكم) حقاً لِمَ لم يعر القوم اهتماماً بإمامهم ؟ •

كان عمرو بن سلمة طفلنـــا الوديع يتوق إلى اللحظة التي يؤذن فيها المؤذن للصلاة ، لقد غدت فرحة عمره ، ولذة وجوده ، ها هو يجلس في ركن الغرفة يستعيد ما يحفظه من القرآن •

إنه سعيد فهو لاينسى مما حفظ شيئاً •

وسمع لغطاً بين أبيه وكبار قومه يتحدثون عنه •

وكانت المفاجأة الحلوة الثانية •

إنه ثوب جديد ، قميص سابغ جميل ، يا الله ! هُوَ له ؟!

نعم لأنه إمام القوم ، وزغرد الطفل اللعوب وقال :

« فاشتروا فقطعوا لي قميصاً ، فما فرحت بشيء فرحتي بذلك القميص » وامتـــد الزمن ، واتصل بنـــو حزم بالقرآن أكثر وأكثر •

وغبناً فلم يبلغ شأو الطفل الصغير أحد .

لقد بقي إمام قومه طوال حياته .

«فما شهدت مجمعاً من حزم إلا كنت إمامهم إلى يومي هذا» .

يالها من طاقات خالدة لا تبلى أبد الدهر ! !

١ ـ اهتمام الطفل بالجديد ، وحبه للاستطلاع لا بد أن يلبى، ويا ويح الطفل إن لم تلب أشواقه وتطلعاته ، فليس أمامه إلا الشارع مدرسة له بكل ما فيه من سوء أو انحراف ، ولكن الشارع لعمرو كان مدرسة جيدة تلقن منها القرآن الكريم .

٢ ـ والعلم يكون أكثر ما يكون جدية وثراء وإيجابية يوم يكون تلقائياً وباندفاع ذاتي من الطفل ، وهذا ما لقيناه من عمرو رضي الله عنه يوم أشبع بالقرآن فهماً وحفظاً بدافع ذاتي ، والمعلمة الجيدة هي التي تتمكن من أن تفتح آفاق تلميذاتها وتنمي مواهبهن وهن يتعلمن لا التي تفرض عليهن التعليم فرضاً .

٣ ـ وفي هذا الدرس رد" على من يفرض على الطفل ألا يتلقى إلا ما يدركه ، إن ذاكرة الطفل في هذا السن هي أشد ما تكون ذكاءً وتوقداً وقدرة على الحفظ ، وإمكانية على الاستظهار حتى ولو لم تفهم ما تقرأه . فلماذا لا تستغل هذه المرحلة في ربط الأطفال بالقرآن ، وتهيئة الأذهان لحفظه بعد بذل الجهد الممكن في فهمه ، إنه وإن كان من الثابت تربوياً قدرة الطفل على

حفظ مالا يفهمه أقل مما يفهمه . لكن الحافز القوي قادر على تذليل صعوبات الفهم والنماذج الحية بين أبناء مدارس تحفيظ القرآن تؤكد هذه الدلالة ، حيث حفظ كله أو جزئه من أبناء الثلاث عشرة ربيعاً ونيف أو أقل ، لماذا لا نفجر هذه الطاقات الكامنة . ولماذا نحشو أذهان التلميذات حشواً وندع القرآن ؟ !

٤ ــ وليس عمرو بدعاً من الناس رضي الله عنه ، ولكنه وجد جواً جديداً فانسجم فيه ، وراح يسمع لما يتلى من هؤلاء الركبان. إننا بمقدار ما نثير الحوافز لدى الطفل بالتجديد والحيوية بمقدار ما نستطيع أن نحرك كوامن الطاقات عنده ونخرجها من محبسها لتحقيق أهدافها .

٥ ــ وكون عمرو بن سلمة قد غدا إماماً لقومه نلفت الانتباه إلى تنمية جوانب الابداع في شخص الطفل . فيحتل المكان المرموق الذي يستحقه رغم صغر سنه، وكان قوم عمرو جميعاً على مستوى عقيدتهم ، فلم يأنف واحد منهم عن الاقتداء به وهو ابن السنين السبع .

إن الطفولة ــ يا أختاه ــ عالم عظيم حين نحترمه ونقدره يعطينا أعظم الطاقة ، وليس احترامه بأقل إيجابية من طاقته .

ما موقفكِ وقد صححت لك طفلتكِ الصغيرة خطأً ندّ منك ؟ !

ما موقفكِ وقد سلكت طفلتك سلوكاً خيراً من سلوكك !!

هل الجزاء هو الزجر والكبت لأنها أظهرت هذا الخطأ ؟ أم رعاية هذه القدرات ، وذكرها أمام رفيقاتها حثاً وتشجيعاً لها على الصواب ؟

٦ ـ وبلغ من استغلال طاقات الطفولة لدى عمرو رضي الله عنه أنه حافظ على مستواه العظيم في الإمامة ، ولم يبلغ مستواه أحد ، وبقي إماماً لقومه طيلة حياته •

إن الطفلة المجدة حين تجد التشجيع المناسب والحث الكبير لمواهبها سوف تحافظ على مستواها الجيد ، وتزيد من شحذ طاقاتها لتبقى سابقة قريناتها •

وما أحرانا أن نستغل إمكانيات بناتنا أكبر استغلال لتعطينا أعظم الثمار •

٧ ـ ولا بد من التعريج على جانب آخر من عالم الطفولة ، غير جانب الطاقات هو أفراح الطفولة نفسها ، فإمامة عمرو بن سلمة لم تغير واقعه ، أو جعلته يستغني عن حاجات طفولته ومباهجها ، إنه ليس الرجل الراشد في كيان طفل ، بل هو الطفل الموهوب اللعوب ، إنه قدم لنا واقعه يوم حدثنا عن ثوبه القصير ، وعن تبرم النساء من ظهور عورته من خلاله ، وعن فرحه الذي لا يعادله فرح بقميصه الجديد كما يقول :

فما فرحت بشيء فرحتي بذلك القميص •

إن للطفولة أفراحها واهتماماتها ، وعلى المربية أن تحتفي بهذه الأفراح وترعاها وتحسب حسابها ، وهي تبني بناءها القويم، وتغرس غرسها الجيد المفيد ، إن تجاهل أفراح الطفولة بالثوب الجيد ، والقرش الجيد ، والمنظر الجديد ، هو قتل لهذه النفس وإعاقة لها عن العطاء والإبداع •

٨ ــ وحين نوازن بين الجانبين نكون على الجّادة الصحيحة للتربية فليس معنى الاهتمام بالأفراح ، العبث وإضاعة الوقت باللعب ، وتزجيــة الفراغ بالضحك ، وليس استغلال كوامن الطاقات وتوجيهها تحويل الطفل إلى راشد عمره عشرون عاماً لا يعرف إلا الجد •

إن إيجاد التوازن الحقيقي بين أفراح الطفولة واهتماماتها من جهة ، وبين توجيــه الحوافز وتنميــة الطاقات هو الموقف الإسلامي الأصيل من التربية فما أحرانا أن نفقه أصول التربية من تراثنا العظيم •



فهرس

صفحة